د. محمد عبد المعيد خان

# الأساطير العربية قبل الإسلام

مكتبة النافذة

39
17
M
2

# الأساطير العربية

## قبل الإسلام

تأليف

الدكتور/ محمد عبد المعيد خان

مكتبة النافذة

# الأساطير العربية قبل الإسلام

الدكتور/ محمد عبد المعيد خان

الطبعة الثانية / ٢٠٠٦

رقم الإيداع ٨٨٤٩ / ٢٠٠٥

كل الحقوق محفوظة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى (ميدان الساعة) - فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

ونصلى على رسوله الكريم

# مقدمـــــة

بعدما التحقت بالجامعة المصرية، وافقت لجنة كلية الآداب على تقديم الرسالة لإجازة الدكتوراه أمرنى أستاذى الجليل السيد أحمد أمين أن أقدم رسـالة فـى موضـوع الأسـاطير العربية قبل الإسلام؛ فنشطتْ نفسى لهذا الموضوع لما فيه من بحوث علمية تؤدى إلى تمييز ما دخل فى الأحاديث والتاريخ الإسلامى من الأفكار الجاهلية على يد كعب الأحبار، وعبيـد بن شرية، ووهب بن منبه وغيرهم، ولأنه أيضاً يؤدى إلى توضيح بعض الغموض الملابس للعقلية الجاهلية، لما أخذت أبحث تحت مراقبة الدكتور طه بك حسـين تبـدى لى اخـتلاف واضطراب بين أقوال العلماء، ورأيت آراء الباحثين الذين سبقونى فى تناول بحـوث هـذا الموضوع تتهجم على العقيدة الإسلامية من كل صوب.

وإذا كنت أبحث موضوعى بحثاً علمياً، فقد تحاشيت أن أدخل فى نقاش دينى إلا بقدر ما يتطلبه الإيضاح العلمى. فلا يظن ظانٌ أنى درست هذا البحث تحت شعور دينى من قبل.

ومما لا شك فيه أن البحث دلنى على عدة نتائج تفيد فى إزالة ارتياب الذين ينتقدون العقيدة الإسلامية؛ ولذلك أصبحت الرسـالة التـى كانـت محصـورة فـى الأدب الجـاهلى كالتوطئة لدراسة العقيدة الإسلامية فيجمل بى أن أقدم هنا تلك النتائج التى لم تكتب فى ذات الرسالة لعدم تعلقها بالبحث.

نقد الناقدون العقيدة الإسلامية، وذهبوا فى بحثها مذاهب شتى، فمنهم من درسها من الناحية الفلسفية التى طرأت عليهـا والتـى دعـت إلى دخولهـا فـى الإسـلام ومقتضـيات

العصور، ومنهم من بحثها من الناحية التاريخية التى تحيط بها؛ فذهب بعض باحثى المدرسة الأخيرة إلى أن فكرة التوحيد وليدة طبيعة البلاد العربية، وقال بعضهم إنها مأخوذة من اليهود والنصارى، وقيل أيضا أن محمداً (ص) لم يأت بشيء جديد، بل رفع من شأن أحد الآلهة التى كانت تكبر وتعبد من قبل.

ولكن البحث فى هذه المقالة هدانا إلى أن نقول إن العربى العارى عن التخيل فى عصر البداوة لم يتصور ما وراء الطبيعة، ولم يتخيل حياة بعد الممات، ويرى القارئ ذلك مفصلاً مبيناً فى فصل تحليل العقلية العربية من هذه الرسالة، كما أنّا نقول إن طبيعة البلاد لم تدعُ إلى نشوء فكرة التوحيد فى هذه البقعة، وإنما دعت إلى الدهرية وتقديس الحجر كما فى الباب الثانى والثالث.

وليست فكرة التوحيد موروثة عن اليهود والنصارى كما يُظن، بل هى طبيعة كل نفس ذات شعور، ويؤيد ذلك روايات اليهود والنصارى التى اتفقت على أن إبراهيم كان يبحث عن الخالق الحقيقى منذ حداثة سنه، والعربى البدوى أيضاً لم يعبد مظاهر الطبيعة فى مبدأ الأمر كعبادة الفرس للنور والظلام، ولم يقم تماثيل السدنة وشيوخ القبائل كعبادة الهنود للبراهمة والملوك (انظر نظرية بدء الوثنية)، حتى إذا تسلطت عليه الوثنية البابلية ظهرت ميوله الطبيعية فى الدهرية والوثنية، فأصبح الدهر وصفاته من ميزات جميع الآلهة البابلية التى كانت تعبد فى العرب.

ويظهر هذا جلياً من استقسام العربى عند جميع الأصنام. فالعقلية العربية كانت تعتقد من أول نشأتها ـ مثل أمم الشرق الأخرى ـ فى كون المادة أزلية وعلة لجميع ما يناله فى الحياة، ولكن عقلية العربى لم ترتفع إلى تقسيم هذه العلة فى النور والظلام كما تقسمت عند الفرس والبابليين. ولما اشتهرت الأديان فى أنحاء شبه جزيرة العرب

امتزجت عقليته بالآراء اليهودية والمسيحية، وأخذت فكرته تنقل من عبادة آلهة مادية إلى

عبادة آلهة إنسانية (انظر تصور الإله عند العرب). وكان هذا أقرب إلى فهم العربى الوثنى من فهم إله معنوى.

كان العربى يشعر بوجود إله قبلما تطرأ عليه هذه العقائد الجاهلية (انظر الوثنية الخارجية)، وكذلك الفارسى والهندى والمتوحش فى جنوب أفريقيا وأستراليه يقر كل هؤلاء بوجود الله إذ يعبدون النور والظلام والمظاهر الطبيعية والحيوان الطوطمى، معتقدين أنها مظهر من مظاهر العلة الأولى، فالإقرار بوجود الله طبيعة كل نفس فُطرت على الإنسانية وكل رجل - سواء أكان متوحشاً أو متحضراً، وسواء أكان عالماً أو أديباً - إذا تبصَّر فى أمور حياته اليومية، وإذا راجع تاريخ الأمم وإذا حاول أن يعرف كُنه ذات الحرارة والنور، وإذا تحير فى تفسير العلة وارتباطها بالمعلول وإذا سكر بتأثير نغمات الموسيقى - يشعر بوجود مدبر ذى علم واسع وراء هذا الترتيب والنظم الطبيعية العظيمة، وهو لا يحتاج فى ذلك إلى دليل فلسفى؛ وذلك لأن وجوده ليس بشىء مادى حتى يحلَّل فى معمل العلم، بل وجوده يشعر به كل قلب ذكى سليم؛ ولكن ليس كل قلب بسليم وذكى، ولذلك نحتاج إلى معرفة صفاته التى تدل على وجوده وعظمته، وهذا الموقف هو الذى تختلف فيه الأديان، فالمذاهب التى تعتقد بعدة الآلهة ما هى إلا رجع بالعقلية إلى عصر البداوة التى كان المتوحش يعبد فيها كل شىء مخيف أو مفيد، وعلى أنه علة لجميع الكائنات.

وقد يعترض علينا معترض أن عالم الكيمياء والطبيعة والرياضة أيضاً لا يعتقد بالعلة الأولى، مع أن عقليته ليست فى حالة البداوة، والواقع أن العالم يفرض عليه أن يفسر أجزاء ارتباط العلة بالمعلول، ولا يتعب نفسه بتفسير تلك العلة التى دعت إلى ترتيب ذلك الارتباط، وهو حينما اجتهد فى ذلك لم يجد له مفزعاً إلا أن اخترع مذهباً فلسفياً ليستر عجزه عن نفسه المغرورة بقوة العقل، ولهذا كانت الفلسفة أثر حالتين، حالة اليأس أو حالة الترف العقلى.

وأما المذاهب التى تعتقد بوحدانية الله، ولكن تختلف فى صفاته فمعظمها اليهودية والنصرانية والإسلام. وقد بينا فى فصل تصور الإله أن اليهود كانوا يصفون الله بجميع صفات الإنسان، حتى وصفوه بوصف التناسل الإنسانى، وكان إلههم محصوراً فى بنى إسرائيل، فأصبح الملك المتعصب الذى يحمى شعبه من ظلم الشعب المصرى، ثم صارت الشمس من شركائه، وكذلك كانت حالة المسيحية التى نتجت من عقيدة عودة المسيح، بل زادت المسيحية فى الوثنية عبادة الإنسان، وكل هذا يخالف تصور الإله فى الإسلام الذى يحمد الله رب العالمين فى صلاته كل يوم خمس مرات على الأقل، وهو وصف لا نجده عند اليهود والنصارى، فكيف يكون مستعاراً منهما؟! ومن هنا يظهر أن عقيدة التوحيد ليست ميراثاً عن اليهود والنصارى، وإنما جاء محمد (ص) بوحدانية لم تكن من قبله فى عصره.

هذه الرسالة نتيجة دراسة سنتين، ولكن اتساع الموضوع كان يقتضى منى دراسة سنين عدة؛ فالحمد لله الذى أعاننى على إتمامه فى مدة قليلة، وما كان ذلك فى استطاعتى لو لم يكن لى العون من مساعدة أساتذتى الأجلاء مثل الدكتور طه بك حسين، والأستاذ أحمد أمين الذى كان يرشدنى دائماً إلى المصادر القيمة، ولم تكن استفادتى قليلة من الأساتذة: الدكتور منصور فهمى عميد كلية الآداب السابق، والأستاذ عبد الحميد العبادى، والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق، والدكتور شخته، والدكتور جفرى أستاذ اللغة العربية بالجامعة الأمريكية فى القاهرة؛ ويرجع فضل هذا المجهود كله إلى حكومة حيدر آباد التى بعثتنى إلى الجامعة المصرية؛ وإلى هؤلاء الأساتذة الذين كانوا يشجعوننى على تحصيل الأدب فضلاً منهم وكرماً.

فأقدم عظيم امتنانى إلى حكومة حيدر آباد وإلى أساتذتى الأجلاء لما لقيته من رَقيق الحنان وعظيم العطف مما كان له أجمل الآثار الحميدة فى هذه النتيجة التى وصلت إليها وإنها لجهد أرجو أن يكون مبروراً مشكوراً. والسلام

# الباب الأول

# منهج البحث

# الفصل الأول
# مصادر الأساطير

الميثولوجي (علم الأساطير) علم من العلوم الحديثة، لم يكن معروفاً عند العلماء القدماء كما نعرفه الآن ونبحثه؛ ودراسة الأساطير حتى عند الأوروبيين الذين يعنون بها عناية تامة لم تصبح دراسة علمية إلا في أواخر القرن الثامن عشر، فكيف - والحال هذه - نتوقع من علماء العرب في القرون الوسطى أن يدرسوها درساً عملياً، وأن يبحثوها بحثاً فلسفياً.

والمصادر التي تتعلق بالتاريخ الجاهلي وبآثار الجاهلية وصلت إلينا من الرواة والعلماء الذين كانوا ينقدون الروايات في ضوء العقلية الإسلامية، أو كانوا يفضلون الآراء اليهودية أو المسيحية على غيرها على الأقل، فكل ما نقلوه عن العصور الخالية إنما نقلوه متأثرين بالعقيدة الدينية؛ ومن سوء حظنا أن كثيراً من هذه المصادر أيضاً قد سطت عليه عوادي الأيام، لذلك يضطرنا البحث أن نتساءل. ما السبيل إلى استجماع أسطورة عربية؟ وإذا وصلنا إلى الغاية التي نرومها، فهل يمكننا أن نستنتج منها نظاماً ميثولوجياً علمياً خاصاً بالأساطير العربية؟ وإذا كان متعذراً على العلماء القدماء أن يستكشفوا نظاماً لآلهة العرب، وأن يعرفوا صفة الأصنام ونطاق أعمالها في دائرتها المخصوصة، وأن يضعوا الأوثان في محل مناسب وفق اعتقادهم فيها، فكيف السبيل إلى أن يستنبط الباحث الحديث من أساطيرهم ما كان متعذراً عليهم أنفسهم؟ ومع هذه الصعاب فسنحاول ذلك جهدنا، وههنا نبين المنهج الذي نختاره في بحثنا هذا، مستعينين بالله، سائليه التوفيق متوكلين عليه، فهو نعم المولى ونعم الوكيل.

منهجنا أن نبحث المسائل التي ذكرناها آنفاً من وجهتين: الوجهة الأولى هي

مقارنة الأخبار التي دونت في كتب الأدب والتاريخ أو نُقشت على الأحجار بعضها ببعض، ولولا أن كل ما نعرفه تاريخيًا أو دينيًا عن شبه جزيرة العرب قبل الإسلام إنما هو أخبار ضئيلة ومبعثرة، وصل إلينا بعضها بواسطة النقوش وبعضها على ألسنة الرواة الذين كانوا يروون أيام الجاهلية وقصصها قبيل الإسلام، لولا ذلك لاستطعنا أن ندون منها تاريخ بلاد العرب منذ ألف سنة قبل المسيح وما قبلها: والعصر الذي نحن بصدده يراد به أزمان ما قبل ظهور الإسلام؛ ولكن إذا رجعنا إلى تاريخ الأدب العربي (من غير نظر إلى الأمم السامية الأخرى) في ذلك العصر، نجد أن جماعة الكتاب تناولوا عصرًا ضيقًا كله فيما بين سنتي ٥٠٠، ٦٢٢[١] من الميلاد، أي نحو مائة سنة قبل ظهور الإسلام، أعني به فتح مكة، وهذا يخالف الواقع، لأن هناك فرقًا كبيرًا بين ما قبل الإسلام عامة، وبين العصر الأدبي الذي حدده الكتّاب على وجه خاص، لذا يجب أن نبدأ بتفسير معنى الجاهلية الذي نعنيه.

اختلف العلماء في تحديد معنى الجاهلية، وذهب المفسرون إلى أن المراد من الجاهلية في قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب:٣٣] أن الجاهلية كانت فيما بين نوح وإدريس[٢]، وقيل كانت المرأة فيها تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين، وتلبس الثياب الرقاق ولا تواري بدنها، وروي عن الحكم بن عيينة[٣] أن الجاهلية كانت بين آدم ونوح، وهي ثمانمائة سنة[٤]: وقال الكلبي[٥]: إنما يراد بها عصر ما بين نوح وإبراهيم، وقيل إنها عبارة عن أيام الفترة ما بين موسى وعيسى عليهما السلام، وما بين عيسى ومحمد[٦] ﷺ؛

(١) Literary history of Arabs, by Nicholson B. XXII

(٢) تاريخ الطبري ج١ ص ٨٣

(٣) هكذا في الأصل

(٤) بلوغ الأرب ج١ ص ١٧

(٥) بلوغ الأرب ص ١٧

(٦) بلوغ الأرب ج١ ص ١٨

وروي عن ابن خالويه[1] أن هذا اللفظ أطلق في الإسلام على الزمن الذي كان قبل البعثة، ويرى الألوسي في بلوغ الإرب أنها الزمان الذي كثر فيه الجهال.

فهذه الأقوال كلها تدل على أنها تطلق على زمن الكفر مطلقاً كما قال أصحاب محمد ﷺ: كل من عمل سوء فهو جاهل، ويؤيده قول النبي ﷺ لأبي ذر: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، وهذا يؤيد قول المستشرق جولدزيهر[2] (Goldziher) الذي أثبت أخيراً أن الجهل ضد الحلم لا ضد العلم، فالشعراء الجاهليون كانوا يريدون بالجهل التوحش لا عدم المعرفة، وكذلك المسلمون إذا ذكروا الجاهلية أرادوا بها العادات الوثنية.

فليس من المستطاع أن نحدد الجاهلية كعصر معين من عصور التاريخ المعينة، لأنها ليست زمناً متصلاً بعضه ببعض، بل هي فترات متقطعة تقع حيناً بعد حين، وكل فترة منها تكوّن طائفة وثنية لها شعائرها ولها خصائص عباداتها التي تعبر بها عن شعور الأمة حسب دواعي البيئة؛ لكن البحث في مثل هذه الدواعي يحتاج إلى مصادر يُرجع إليها كما تقتضي طبيعة البحث، والآثار الباقية عن القرون الخالية - لا في أساطير العرب فقط بل في أساطير الساميين بأجمعها - قليلة جداً؛ ولا تُحفظ خرافات أمة من الأمم إلا بعد أن تدون في أدبها وتاريخها.

وأدب الساميين الوثنيين ضئيل جداً، وكل ما وصل إلينا عن خرافات العرب مع أساطير الساميين إنما هو أخبار متقطعة ومبعثرة، مثل الأساطير البالية التي اكتشفت في الألواح السبعة: Kings Seven Tablets of Creation وفي الأدب البابلي Babylonion Literature وفي الدين الفلسطيني في ضوء الأرجيولوجي (Religion of

---

(١) بلوغ الأرب ص ١٥

(٢) Literary history of Arabs by Nicholson p. ٢٠

Ancient Palistine in the light of Archaeology, by Cook) ونجد قليلاً جداً في نقوش السامين الشماليين: North semetic inscription

فالأدب القديم للعرب الجاهليين الأولين قد ضاع لانعدام صناعة الكتابة عند العرب. أما الأدب الإلحادي ( Hathenism) الذي يوجد في الجاهلية الثانية أو قبيل الإسلام، والذي ذكره القرآن الكريم ونظمه الشعراء القدماء في قصائدهم ودوّنه الكتّاب، كالذي يوجد في سيرة بن هشام وأخبار عبيد بن شرية والإكليل وحياة الحيوان للدميري، وفي كتب المتأخرين مثل الأغاني ومروج الذهب للمسعودي، والأزرقي والبلخي والقزويني والثعالبي والألوسي ونحو ذلك، فقد ساعدنا على الوصول إلى معرفة العقلية الجاهلية إلى حد بعيد ولعدم إتقاني اللغة الألمانية استعملت جميع المصادر التي استعملها ولهوسن (Welhausen) في كتابه ( Rest der Arabicshen Hieduntum) وعرفنا آراءه من مقالة (هه) حول العرب القدماء في دائرة المعارف (الأخلاق والأديان).

ويجدر بي أن أقول أنني أشك في أن كثيراً من هذه العادات التي ذكرها المؤرخون هي عاداتهم الأصلية: لأنني أرى أن حكاية عاداتهم لم تتغير على أيدي الرواة فقط، بل ولم تبق على بداوتها الطبيعية لتأثرها بالمدنية التي كانت تجاورها، ذلك إلى أن آراء الصابئة اليهود والنصارى أثرت في فكرة الجاهلية تأثيراً عظيماً؛ فليس من الإسراف إذن أن نقول: إن العربي الجاهلي تحت ضغط الأديان المختلفة أخذ يفسر شعائره القديمة على منهج الصابئة واليهود والنصارى، ولا نغالي أيضاً إذا قلنا إن كثيراً من هذه الأخبار وصلت إلينا وقد صبغت بصبغة يهودية أو نصرانية، وقليل منها وصل إلينا على بداوته الأصلية؛ بل كم من أخبار البداوة التي لم تتفق مع عقلية الكتاب غضّ الكتاب طرفهم عنها، كالذي يقوله ياقوت: قلت: وهذه الحكاية كما ترى خارقة للعادات بعيدة عن المعهودات، ولو لم أجدها في كتب

العلماء لما ذكرتها؛ وجميع أخبار الأمم القديمة مثلها والله أعلم"[1].

أما المصادر الأخرى التي تتعلق بشبه جزيرة العرب فتنحصر في أقوال المؤرخين اليونانيين، مثل استرابو وهيرودوت، أو في نقوش سامية أو يونانية بينت أسماء بعض الأوثان ولكنها لم تدل دلالة ما على سبب عبادة هذا الصنم أو ذاك.

وقصارى القول: أن خزائن الكتب القديمة قد ضاعت، وانقطع الرجاء لسوء الحظ من العثور على تلك الآثار النفيسة، ودرست النقوش وانمحى أثرها إلا نزرًا يسيرًا تحت الأطلال. أما التاريخ المدون فما هو إلا جمر ضئيل بين الرماد، ولو لم يُذْكِه الكتّاب المسلمون الذين خدموا العلم حبًّا في كرامة الدين الإسلامي لخبا نوره. ومع هذه المصادر الضئيلة لا مناص عن تحديد الموضوع، إلا أن موضوعًا غامضًا مثل هذا لا يسمح بالتحديد؛ وذلك لأنه ليس لتطور التفكير حد ثابت، ولا لمعنى الوطن حدود جغرافية. كما أن القومية العربية امتزجت بالقوميات التي جاورتها، والامتزاج وتبادل الآراء يدعوان إلى تطور التفكير وتكوين عقلية الأمة، فمن الصعب إذن أن نتوصل بصورة تاريخية إلى الأزمنة التي طرأت فيها عقائد الأديان على الفكرة البدوية في شبه جزيرة العرب كلها.

ولهذا يجمل بنا أن نركز الموضوع حول البداوة في الحجاز، ونجدّ لكي نصل إلى معرفة تفكير العربي الجاهلي فيه؛ حقًّا إننا نخسر خسارة كبيرة بهذا المنهج ونضطر إلى ترك كثير من أساطير كانت في شبه جزيرة العرب، ولكن نستطيع أن نعتاض عن هذه الخسارة بالاستمداد من الأساطير التي توجد في فلسطين وبابل واليمن، وسوف يثبت لنا أن هذا الاستمداد مفيد لتكميل الحلقات المفقودة من سلسلة تفكير العربي الجاهلي. وكذلك يمكننا أن نستفيد مما نقله المستشرقون

(١) معجم البلدان المجلد الثاني ص ٢٠

عن تراجم النقوش الحميرية والنبطية والسبئية، ثم نقارنها بما دُوّن في التوراة والقرآن والأدب الجاهلي الذي ذكرناه سالفاً. إلا أن الأدب الجاهلي كما قلنا قد دُوّن في عصر متأخر من العصور الجاهلية، فلذلك لم يُعتبر كثير منه مستنداً تاريخياً عند العلماء.

وإذ أرى أن البحث في التفكير الجاهلي يجب أن يُبنى أساسه لا على التاريخ بل على الأساطير التي نقلت من جيل إلى جيل فسنحاول أن نستنبطها على قدر الاستطاعة من مقارنة الروايات المختلفة بعضها ببعض، ويكون الاستنباط مبنياً على تفضيل الشيء الذي يوافق عقلية الأمة العربية وسجيتها، ناهجين منهج علماء الأساطير الذين يعتبرون عدة أطوار في تطور التفكير - فتكون المقارنة وحدها في منهج بحثنا في استنباط الأساطير لأنها أحسن وسيلة لمعرفة المجهول من المعلوم.

وأما تحديد مبدأ الفكرة البدوية الجاهلية فهو أصعب من تحديد عصر ظهور الأمة العربية في آسيا الغربية، وهي صعوبة تاريخية لا تزال تتعب عقول المؤرخين والباحثين عن مدنية القدماء. فكل ما نقول في هذا الصدد قبل اكتشاف المؤرخين يُعَدّ رمية من غير رام؛ ولذلك لا أزعم أن كل ما أقول في الأسطورة العربية هو الحقيقة الوحيدة، بل إنما أحاول أن أستنبط من آثارهم الباقية: ماذا كانت العقلية العربية في حالة البداوة؟ وكيف تطورت؟

وأما الوجهة الثانية فهي أن نبحث تلك المسائل من ناحية عقلية الأمة العربية وخيالها في ضوء بيئتها الطبيعية والاجتماعية، وذلك لأن البحث في أساطير الأولين هو بحث في التفكير ومناهج النظر البشري، فهو يرينا كيف شرع الإنسان الأول يفكر في نفسه، وفي خالقه وفي الرابطة بينه وبين الموجودات. معنوية كانت أو مادية. فمن الضروري للتمحيص في تاريخ التفكير العربي الجاهلي أن نطّلع على غرائز الأمة العربية وعلى ميولها وتأثرها بالظروف والأحوال. ولكن ماذا نريد بالتفكير الجاهلي؟ يجب أن نعرّف التفكير الجاهلي أو الأسطورة قبل أن نسير في

تقدير الخيال العربي باعتبار قابليته لتوليد الأساطير.

ونبدأ بآراء علماء الغرب الذين سبقوا الشرق في استنباط هذا العلم كما تقدموا في درس تطور الخيال من قصص خرافية إلى فلسفة علمية، وفضلاً عن ذلك فإن الظروف الطبيعية التي جعلت الآريين ممتازين عن الساميين حملتهم على توليد أساطير وشعر قصصي بكثرة وافرة وبأنواع مختلفة، حتى أصبح متعذرًا على العلماء أن يحددوا معناها لكثرة تنوعها.

وتحديد أي شيء من الأشياء ليس من اليسير، بل إن تعريف الأساطير التي تشمل بعض مميزات مشتركة بين أمم مختلفة صعب كل الصعوبة، نظرًا لتقاليد وراثية ونقلت إليهم من عصر يسمى في الاصطلاح الحديث: عصر توليد الأساطير (Mythopoec Age) - وهذا العصر يماثل العصر الحجري والحديدي في تمثيله طورًا من أطوار ارتقاء الفكرة الإنسانية، أو قل إنه وظيفة من وظائف الذهن الإنساني لأن هناك أساطير صنعت واخترعت في عصر التاريخ أيضًا.

وجملة القول أن العلماء ذهبوا في تعريف الأسطورة مذاهب شتى، فمنهم من رأى في الأساطير حكايات القدماء في الدين مثل زينوفانيس (Xenophanes)[1] ورأى سقراط أن صفات الآلهة يمكن اكتشافها من تحليل أسماء الأصنام، ومنهم من ذهب إلى استنباط فلسفة الأولين منها مثل تياجنس (Theagenes)[2] الذي سلك مسلك أصحاب التشبيه والمجاز، فقال مثلاً: إن المقاتلة بين الآلهة ليست بمقاتلة حقيقية بل يعبر بها عن التنازع بين عناصر مختلفة مثل الهواء والماء، والنار والتراب، أو بين عواطف نفسانية مثل الحب والعداوة، ومنهم من قال إن الأسطورة هي التاريخ في

---

(١) P.٤١. Introduction to Mythology, by Lewis Spence

(٢) Int. to Mythology. P. ٤١.

صورة متنكرة (Euhemerus)[1] ومن هذا يظهر أن كل واحد من العلماء اختار نوعًا من أنواع الأساطير ولم يضع تعريفًا جامعًا مانعًا للأساطير بأسرها.

وعندما أتى القرن الثامن عشر وبدأ نقد الأساطير بالمعنى الصحيح ونبغ فيمن نبغ من المفكرين ماكس ملر (Max Múller)[2] وهربرت سبنسر (Herbert Spincer) - الذي فسر الأساطير في ضوء علم الاجتماع - اهتمًا بالأساطير اهتمامًا كبيرًا، وبذلا المجهود في تحديد معناها، فقال ملر: إنها «مرض من أمراض اللغة» ( Disease of laguage)[3] فسلك مسلك عالم اللغات، وجاء بعده سبنسر فما كانت الأسطورة في رأيه إدراكًا مبتدئًا بل إدراكًا خاطئًا (Erroneos set of interpretation)[4].

ومن آراء هذين المفكرين نعلم أنهما جعلا الأساطير مرآة لقراءة نفسية الذين ألفوا الأساطير، فرأى ملر أن القدماء كانوا عاجزين عن الإعراب عن ضمائرهم بلسان مبين، وأما سبنسر فإنه حسب الأولين قاصرين عن فهم معنى الموجودات حيث قال إنهم مخطئون في إدراكها، وذهب كلاهما إلى تحليل نفسية الأولين كما قلنا آنفًا، ولم يشرحا نفس الأسطورة شرحًا بليغًا.

أما طريقة ملر التي بها يحل الأساطير بمقارنة اللغات فقد بان خطؤها في حل المسائل التي تتعلق بتأويل عناصر علمية من قصص أمم همجية، فلا ضرورة لنا إذن في إطالة الكلام فيها، أو في نقد تعريف سبنسر بأنه إدراك خاطئ، إذ لا يسوقنا إلى الغاية التي نحن بصددها، ولأنه خاطئًا كان الإدراك أو مصيبًا فهو إدراك قوم ذوي نفوس وشعور كغيرهم من الأمم. ولا أخال هناك فكرة صائبة في عصر من

---

(١) Intr. To mythology p. ٤٢
(٢) Intr. To Mythology p. ٤٧
(٣) Maz Muller «on the Science of thought» p. ٧.
(٤) Principles of Sociology, By: Spencer p. ١٣١.

العصور، ذلك لأنه لو وصلنا إلى الحقيقة التي نسعى ونبذل الجهود لتحقيقها لما كان التنازع ولا التنافس الذي نقابله كل آن. فلنأخذ دراسة الأسطورة لا باعتبار أنها إدراك خاطئ أو مصيب، بل باعتبار أنها طور من تاريخ أطوار فكرة الإنسان.

وهذه الفكرة التي نهتم بدراستها هي فكرة ذات نطاق واسع وتنوع في المعنى يستحيل حصره في كلمة بسيطة، ولذلك اختار علماء عصرنا هذا أغلبية العناصر في الأساطير وسموها ونسبوها إلى العنصر الذي يغلب عليها، فمنهم من رأى فيها تغلب عنصر ديني فتسبها إلى الدين، وجعلها قسمًا مهمًا في دراسة الأديان.

ويرى رابرتسن سمث (R. Smeth) أن الأسطورة ليست جزءًا جوهريًا من دين قديم لأنها ليست في شريعة الدين ولذلك كانت غير لازمة للمتعبدين[1].

Mythology was not essential part of ancient religion for it had no sacred sanction and no binding force on the worshippers.

ويقول: إن الأسطورة تُستنبط من العادات والشعائر لا بالعكس[2].

«The myth was derived from the ritual, and not The retual from the myth.»

وإن العادات والتقاليد مستقرة وثابتة والأسطورة متغيرة ومتحولة. فالأول واجب ومستلزم، والثاني يتوقف على تخير المتعبدين. وهو يقول في موقف آخر إن الأسطورة تفسير أو تأويل لشعائر دينية، وهي على العموم لا تؤلف إلا بعد ما تزول أو تضيع الفكرة البدائية التي دعت إلى اتخاذ تلك الشعائر أو التقاليد، فالأسطورة عادةً لا تشرح كيف بدأت الشعائر والعادات بل إنها -نفسها- تحتاج إلى تفسير، ولذلك

(١) Religion of Semitic By: R. Smith p ١٧.

(٢) Religioh of Semitic By: R. Smith p. ١٨.

تفسر بواسطة العادات التي تتعلق بها.

ويقابل هذه الآراء رأي: «لويس اسبنس» الذي يرى في الأساطير عنصرًا مهمًا لدين القدماء فيقول وهو ينتقد فكرة «سمث»[1]: إنه بلا ريب على حق فيما يقول من أن الأسطورة ليست بمنزلة العقيدة في الدين القديم، وإنما حكايات السدنة والناس تتخذ أشكال الروايات التي تدور حول الأصنام، وبعدما تعلق هذه الحكايات بالدين وبالروح الديني لا نعرف لأي سبب أنكر وجود روح الدين في الأساطير، وقال سمث: «إن هذه الحكايات ما هي إلا تفسير لشعائر الدين وقواعد متعلقة بالعادات.

وإذا سلمنا أن الأساطير تفسير أعمال أعظم الأصنام فقد تكو ذات أهمية كبيرة للأديان؛ لأن القصص التي تتعلق بالدين هي الأصل، ولأن غالبية الناس يبنون آراءهم في الدين على القصة التي تفسر عقيدتهم فيها.

ومجموعة الأساطير التي تدور حول الأوثان تعد على العموم تراث القبائل عند البرابرة، وهي تحل محل المصاحف المكتوبة، وتوحي للغرائز الشعرية والقصصية، فهي تمثل على مسرح قدسي، وينشدها التلاميذ للحصول على مرتبة قسيسية.

فالزعم أن الأسطورة لم تكن جزءًا جوهريًا من الدين القديم مبني على خطأ حدث من سوء فهم حكاية مكتوبة أو منقولة متعلقة بالأصنام، ولذلك نرى أن «ليوس اسبنس» رأى الأسطورة من أهم عناصر الدين القديم، وقال إن رابرتسن سمث يخطئ مرة أخرى عندما يقول: «إن التقليد أسبق في الزمن من الأسطورة، ونحن نثق كل الثقة عندما نقول إن الأسطورة قد استخرجت من العادات والتقاليد لا العكس» -وهذا صحيح، فإن الأسطورة قد تستنبط من العادات كي يفسر ويتأول

---

(1) Introduction to Mytology, p. ٦٣.

هذا التقليد: لكن يجب إلا نغفل أن الأسطورة التي من هذا الصنف توجد متأخرة جدًا، فهي طبعًا تولد إذا ما ضاعت الأسطورة التي كانت السبب في تلك العادة أو التقليد.

وأما من يقول إن الأسطورة ليست جزءًا جوهريًا من دين قديم، فنجد لدينا ردًا بسيطًا عليه، وهو أن الاعتقاد لم يكن لازمًا لأنه كان طبيعيًا وسائدًا على الأذهان جميعًا.

وخلاصة القول: أن رابرتسن سمث غلا حينما أنكر علاقة الدين بالأسطورة. وأما ليوس اسبنس فلم يكن أقل من أخيه تسرعًا في رده عليه، فقد دافع عن كون الأسطورة دينية كما هجم عليها «سمث» هجومًا شديدًا، واستدل كلاهما تحت تأثير شعور تسلط عليهما من قبل. أما سمث فقد وجد في لانج (Andrew Lang) وجيفنس (Jevons) مؤيدين كبيرين لفكرته. فقد قال لانج: إن التصور الديني ينبعث من ذهن الإنسان في حالة التفكير السريع الذي يطرأ على الإنسان ويحمله على عبادة كل شيء مخيف أو مفيد. لكن الفكرة الأسطورية تنشأ من حالة غير التي ذكرناها، وبعبارة أخرى إنها تنبعث من حالة ذهنية يلعب فيها الوهم والوسواس بالنفوس.

أما الأسطورة كما أرى فإنها -مهما كانت الحالة الذهنية- عبارة عن تفسير علاقة الإنسان بالكائنات، وهذا التفسير هو آراء الإنسان فيما يشاهده حوله في حالة البداوة؛ فالأسطورة مصدر أفكار الأولين، وملهمة الشعر والأدب عن الجاهليين.

ونلخص القول فنقول: إنها الدين والتاريخ والفلسفة جميعًا عن القدماء، وهي ليست فكرة مبتدئة أو خاطئة، بل إنها فكرة بدوية تاريخية صبغت بصبغة الإطناب والمغالاة لإظهار أهمية تلك الحادثة الحقيقية في جيل زال أثره من ذهن الناس،

والناس بالطبع يُكبِّرون الشيء الصغير لإظهار عظمة الجيل السالف، ولذلك نرى الناس يعظمون الأموات، وكلما بعد عصر الأموات من الأحياء كبرت عظمتهم وبلغوا درجة الآلهة. وكذلك عندما نقف على أطلال الأكواخ القديمة نشعر كأنها قصور ملكية، وهكذا شأن الإنسان مع كل ما مضى، أما الإنسان فهو بالطبع مجبول على أن يسأل: ماذا ولماذا؟ والبدوي المفطور على أن يقنع بأي جواب ممكن، وذلك خير عنده من ألا يجد جوابًا مطلقًا.

فالأسطورة آراء البداوة التي تطرق ذهن الجاهلي وتخطر بباله وتختلج في قلبه لحل معقّداتها، فهي قديمة العهد وبعيدة عن الوضوح، ومحتوية على عناصر عدة، إلى حد أنه من المستحيل أن نرى فيها سببًا لكل ناموس من نواميس الحياة الفكرية. لذلك نضطر أن نبحث وندرس تاريخ حياة الذهن الإنساني في تطوره بوساطة عناصر الأساطير التي تظهر لنا أنها غير معقولة، مع أنها كانت معقولة ومسببة لدى مؤلفيها.

وقصارى القول: أن دراسة الأسطورة عندنا هي دراسة كل ما سُطّر عند الجاهليين تاريخًا كان أو دينًا، لأنه لم يكن قد وجد في العصر الذي نسميه: «عصر توليد الأساطير» ذلك التفريق الحديث. فالعلم كان محدودًا وممتزجًا بالدين، ولم تكن المعلومات تتجاوز حدود دائرة الضروريات العقلية. ولكنه لا يبعد أن تكون الأسطورة ليست من الفولكلور (Folklore) ولا هي من القصص (Legends)؛ لأن الأسطورة هي صورة من صور الفكر البدائي حينما كانت مسطورة أو مطبوعة في ألواح الأذهان، كما قيل في أسطورة إغريقية[1] أن غيمز الساقي ابن طروس ملك طروادة، كان بديع الجمال فخرج يومًا للقنص على جبل فنزل زوس

(١) آلهة اليونان لمحمد حسين حمزة ومحاضرات الدكتور طه حسين بك.

(رب الأرباب) بهيئة نسر فاختطفه إلى السماء، فأقام في أولمب واتخذه زوس ساقيًا له، ولهذا سمي «الدلو». وكما قيل في أسطورة عربية: «إنما كانت الغميصاء وسهيل مجتمعين، ولذلك يقال للشعريين: أختا سهيل، فانحدر سهيل فصار يمانيًا، وتبعته العبور فعبرت «المجرة» وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت»[1] وكذلك من أساطير العرب أن العيوق عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهرًا وهي نجوم صغار نحو عشرين نجمًا فهو يتبعها أبدًا خاطبًا لها ولذلك سموا هذه النجوم القلاص[2].

ومثل ذلك قصة الزهرة التي تبين أنها كانت امرأة حسناء فصعدت إلى السماء ومُسخت كوكبًا[3]- وقيل أيضًا أن الديك كان نديمًا للغراب، وأنهما شربا الخمر عند الخمار ولم يعطياه شيئًا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب ورهن الديك فخان به فبقي محبوسًا وفي هذا يقول أمية بن الصلت:

بآيـة قـام يـنطق كـل شـيء وخـان أمانـة الديـك الغـراب[4]

و«الفلكلور» يتكون من اعتقاد القدماء الذي لا يزال مستمرًا إلى هذه الأيام مثل قصة حاتم في الجود والسخاء، وقصة السموأل في الوفاء بالعهد، أما القصة (Legend) فهي على العموم الحكاية التي تتعلق بمكان واقعي أو بأشخاص حقيقيين نقلت بالتواتر من جيل إلى جيل، مثل قصة سد مأرب، أو قصة الزباء، وقصة داحس والغبراء، وقصة حرب البسوس، فظهر من ذلك أن الأسطورة غير الفلكلور وغير القصة.

---

(١) بلوغ الأرب الجزء الثاني ص ٢٣٩ – المطبعة الرحمانية سنة ١٩٢٤.

(٢) بلوغ الأرب ج٢ ص ٢٣٩

(٣) البدء والتاريخ لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي المجلد الثالث طبعة باريز ص ١٤

(٤) الحيوان للجاحظ ص ١١٧ المجلد الثاني

# الفصل الثاني
# قابلية العقلية العربية
# لتوليد الأساطير

وقد حان الوقت لنرى هل الأسطورة التي وضحنا معناها آنفًا توجد بمعناها السابق عند العرب الجاهليين أم لا؟ وليس السؤال أمامنا: هل الأسطورة من حيث هي طور من أطوار ارتقاء التفكير موجودة عند العرب أم لا؟

أما الأسطورة كما عرفناها فإن وجودها ثابت عند جميع الأمم بلا استثناء وبغير شذوذ، فلا غرو إذا قلنا أنها توجد عند العرب أيضًا، ولكن محل البحث ليس وجود الأساطير عند العرب، بل هو نظامها، فهل كان لها نظام عند العرب كالأنظمة الموجودة عند أمم أخرى من حيث عملها في حياة البشر؟ ولو كان كذلك فما كيفيته ومقداره؟

وقبل أن نشرع في بحث هذه المسألة بالذات يلزمنا أن نرجع إلى نقطة ذكرناها آنفًا، وهي دراسة الأمة العربية في ضوء بيئتها وعقائدها الوراثية، وكل ما يحيط بها حتى نصل إلى معرفة نظم الأساطير عندها، لأن معرفة العرب ونفسيتها هي شواهد وأدلة داخلية للوصول إلى الغاية التي نحن بصددها؛ فالعرب كما قال أوليري تمتاز عن غيرها بحالتها الاقتصادية والاجتماعية أكثر مما تمتاز بحدودها الجغرافية، فإذا أردنا أن نقول شيئًا عن شبه الجزيرة وسكانها، فينبغي أن نتبع العلماء الجغرافيين القدماء، الذي يلحقون صحراء مصر الشرقية، التي ما بين وادي النيل والفرات، بشبه جزيرة العرب، فقد قال «أوليري»[1] ناقلا عن بيون: إن حالة آسيا الغربية تدل على أن أهل الوبر كانوا بقايا من أسلاف الأولين، وأنهم كانوا فئة من

---

(1) Arabia before Mohamed, by Oleary.

الشعب الذي عاق رقيهم المدني، إذ كانت الشعوب الراقية في أودية النيل والفرات عثرة في طريق تقدم أهل البادية، وبين هاتين المدنيتين (مدنية النيل، ومدينة الفرات) كانت الناحية الشرقية منعزلة فبقيت متأخرة في مراقي الحياة الاجتماعية، ومن ثم ظلت بعيدة عن الاستفادة من الثقافة التي كانت سائدة في الشعوب المتحضرة في ذلك العصر، فأنشأت فيها عزلتها هذه المميزات التي نسميها بالمميزات السامية.

أما كلمة الجنس فيراد بها الطائفة الاجتماعية التي تمتاز بأنها لا تقبل التغيير ولا تتأثر بعناصر أجنبية؛ وذهب المؤرخون في أنساب العرب إلى أن العربي والفينقي والأشوري والبابلي من أب واحد، يؤيد ذلك التشابه في تركيب أجسادهم وعاداتهم، ثم افترق العرب عن إخوانهم فاستدعى ذلك نشوء مميزات مخصوصة، هذه المميزات هي التي سميت بالسامية،وهي التي يسميها رابرتسن سمث: «الخصائص الجنسية» (Ethnical caracterestic)، فإذا فرضنا أن العرب، أعني «السامية البادية» هم بقايا الشعوب السالفة المبعثرة والمحصورة ما بين المدنيتين البابلية والمصرية، وإذا سلمنا أن كلتا الثقافتين ترجع إلى مصدر منسوب إلى ما قبل التاريخ، فينبغي أن نفرض أن الشقاق بينهما وبين أمم أخرى قد وقع في عصر لا نعرف زمانه في تاريخ الإنسان.

فالعرب تختلف عمن جاورها في بيئتها الاجتماعية والاقتصادية، وتشبه من حولها من الساميين في عاداتهم الوراثية وعقائدهم الدينية، وذلك لأن النسل يحتفظ بتراثه القديم مهما اختلف في البيئة كما قال رابرتسن سمث: «وإنما الأمم التي تشعبت من أصل واحد قد تشترك في اتخاذ العقائد والشعائر الوراثية، دينية كانت أو غير دينية: والدليل على أن العبرانيين ومن جاروهم قد اشتركوا في شعائر دينية يشبه الدليل المستمد من مصادر أخرى، ويفيد أن أمة إسرائيلية كانت قريبة المأخذ من أمة وثنية في سوريا وشبه جزيرة العرب.

وعندما نطالع تاريخ فكرة دينية أو تقاليدها عند العبرانيين سوف نجدها تراثًا

مشتركًا بين أمم متقاربة، ولا نحسبها إرثًا مخصوصًا لبني إسرائيل [1]، فيثبت من هذا أن عرب البادية مهما اختلفوا في البيئة عن الحضر فلهم قابلية وصلاحية للتأثر بمن جاورهم من الأمم السامية في العقائد، والواقع أن أهل الوبر تأثروا بأهل الشمال أكثر مما تأثروا بأهل الجنوب الذين كانوا متصلين بالحبشة، وسنبينها في باب «آلهة العرب» إن شاء الله.

صحيح أن وحدة الجنس (Unity of type or homogenity) بين العرب ومن حولهم ليست وحدة تامة، ولذلك لا يصح أن نأخذ موضوع الدرس شخصًا من قبائل عرب البادية ونطبقه على البابليين، لأن بيئة العرب تختلف عن بيئة البابليين. ولهذا فطبيعة الوثنية العربية تقتضي أن تنقسم إلى الوثنية المحلية التي نشأت في تلك البيئة البادية، والوثنية الخارجية السامية التي أثرت في السامية البادية، وذلك لأن مع الاختلاف الأساسي في الوثنية العربية، نجد عند العرب والبابليين آراء متقاربة وأفكارًا متشابهة وتقاليد متحدة؛ وعلى سبيل التمثيل نأخذ عقيدة الخلق والبعث وقصة الطوفان، فنجدها عند البابليين كما نجدها عند العرب، مع اختلاف بسيط، وسوف نرى تأثير أفكار الأمم المجاورة، والبابلية على الخصوص، في مكة والحجاز نفسها، فأكثر هذه الأساطير نجده سائدًا في بادية العرب نفسها، وهذا يدل على أن الأفكار والعقائد البابلية كانت سائدة حتى عند أهل البادية.

وإذا قيل: من أين أخذوا هذه الأفكار وقد كانت العرب في جاهليتها أمة منعزلة عن العالم لا تتصل بغيرها أي اتصال، ولا تتصل بمن حولها في مادة، ولا تقتبس منهم أدبًا ولا تهذيبًا؟ قلت قد ردّ قبلي أستاذي الجليل أحمد أمين فقال: «الحق أن هذه الفكرة خاطئة، وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم ماديًا

(١) Religion of Semites p. ٥.

وأدبيًا، وإن كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم المتحضرة لذلك العهد نظرًا لموقعها الجغرافي ولحالتها الاجتماعية»[1]، وهذا يهدينا إلى أن نقول بأن العرب كانت متحدة في مبادئ العقائد من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا يختلفون عمن جاورهم من الأمم في الحالة الاجتماعية والاقتصادية. وهذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف البيئة في المدنية والبداوة.

أما البيئة الطبيعية في الحجاز ونجد، فهي عبارة عن بادية ورمل لا نهاية لها وعن صحراء وعساء لا نبات فيها. فالأشجار فيها نادرة، والآبار والعيون فيها قليلة وساكن مثل هذه البادية مضطر إلى أن يلجأ إلى مغارات في جبال سوداء ليحتمي بها من حرارة الشمس، ويشد رحله بالليل تحت السماء الزرقاء وراء هداية النجوم للبحث عن بقاع خصبة ومراع خضراء.

وأما المدن فما هي إلا نزُل له عارضي، وتنصب القبائل الخيام التي تشبه مغاور الجبال في أودية خصبة حسب فصول السنة، فيرحل بعد اختتام الفصل إلى واد آخر. فالبيئة التي لا تسمح الظروف فيها بالزراعة والصناعة تجعل الإنسان يعتمد ويتكل على هبات القدرة في اكتساب المعيشة، فهو يتربص المطر ويترقب أوامر القضاء والقدر، وهذا التوكل على القدر عند العرب يتسع إلى حد أنه يستقسم بالأزلام في الأمور جميعًا، أما الاجتهاد المستمر في اكتساب المعيشة فإنها تجعل الإنسان لا يترك الأمور إلى الغد، فهو لا يذهب إلى التفكير فيما بعد الطبيعة، بل يستفيد من كل شيء سهل الحصول لديه، والعربي لا يميل إلى أمور معقدة، بل يطلب ذهنه صفاء ووضوحًا مثل صفاء الرمال الواسعة الممتدة، لا حائل بينه وبين ما بعد مجال النظر.

وهكذا شأن العربي الذي يحب الفكرة البسيطة، الكلام الصريح والبيان

---

(١) فجر الإسلام ص ١٢ الجزء الأول (الطبعة الثانية)

الواضح: لكن الاستفادة من أشياء بسيطة تحتاج إلى دقة النظر وشدة النشاط، وهذه الميزة تحمل الإنسان على أن يتعمق في رؤية كل شيء بسيطًا كان أو معقدًا، فهو ينظر إلى كل ما يشاهد بنظرة دقيقة، وهذه الدقة في الرؤية تزيد قوة بصره، كما تزيد في قوة الذاكرة، وسوف نرى أن العربي في الواقع يمتاز بميزات خاصة له في القوة الباصرة وقوة الذاكرة.

وأجلُّ مظهر من مظاهر البيئة الطبيعية في نفسية العربي حبه لوصف المرئيات وصفًا دقيقًا، هذا واضطرابه في قضاء الحاجات الضرورية وهي عزيزة المنال في بادية العرب يجعله ماديًا محضًا، ولذلك نرى أن غرائز العربي تميل إلى المادة أكثر من ميلها إلى المعاني والروح فهو يمتاز عن الآريين في قوة المشاهدة، وناهيك عن قصة نزار التي تكاد تكون تراث العربي وعلامة الأمة العربية، وهي أنه «لما حضرت نزارًا الوفاةُ أوصى بنيه وهم أربعة: إياد، وربيعة، وأنمار، ومضر، وقال لهم: اذهبوا إلى القلمس بن عمرو أسقف نجران فهو حكيم العرب وقاضيهم، فلما مات نزار بن معد ساروا إليه[1]، فمروا على أثر جمل فقال إياد: هذا أثر جمل أعور، وقال مضر: بل أبتر، وقال ربيعة: بل أزور، وقال أنمار: بل شرود، فلقيهم صاحب البعير فقال: هل حسستم من بعيري حسًّا؟ قال له إياد: هل هو أعور؟ قال: نعم، وقال له مضر: هل هو أبتر؟ قال: نعم، وقال ربيعة: هل هو أزور؟ قال: نعم، قال له أنمار: هل هو شرود؟ قال: نعم، ثم قال لهم: فأين البعير؟ قالوا: ما رأينا لك بعيرًا، فتعلق بهم، ثم أتوا أسقف نجران وهو متعلق بهم، فقال: أيها الحكيم إن بعيري قد ضل، وهؤلاء عرضوا علي صفته وأبوا أن يدفعوه إلي، فقال لهم أسقف نجران: ادفعوا إلى الرجل بعيره إذ أحطتم به علمًا، قالوا له: مررنا على أثر بعير فعرفنا صفته بالأثر، قال لهم: كيف وصفتم؟ قال إياد: مررت بأثر بعير أعور، وقال له مضر: مررت بأثر جمل

(١) كتاب التيجان في ملوك حمير ص ٢١٤، ٢١٥

أبتر. وقال له ربيعة: مررت بأثر جمل أزور، وقال له أنمار: مررت بأثر جمل شرود، وقال لإياد: ما دليلك أنه أعور؟ قال: رأيته يركب أثر عينه الصحيحة وعليها رعيه. وقال لمضر: وما دليلك أنه أبتر؟ قال: رأيت بعره يقع مجتمعًا، ولو كان له ذنب لفرق به ووقع منتشرًا. وقال لربيعة: من أين علمت أنه أزور؟ قال: رأيت أثر خُفّي يديه يركب بعضها بعضًا، وربما خالف بينهما، فعلمت أنه أزور. ثم قال لأنمار: من أين علمت أنه شرود؟ قال: رأيت أثره ربما زاغ عن طريقه، يعترض له فيروغ، ولو كان غير شرود لأصبناه ثابتًا في مكانه».

وهذا الملَكة في دقة الرؤية استمرت وتركّزت في شكل يشبه العلم مثل العرافة والقيافة، ولكن لا يظن ظانّ أن للعرافة علاقة بالكهانة؛ لأن الكهانة والرهبانية عند الصابئة واليهود غير العرافة عند العرب، وهي تختلف عن الكهانة والرهبانية اختلافًا أساسيًّا، وذلك لأن العرافة طور من تطور أوهام العرب، بدأت من الطيرة والتفاؤل والتشاؤم الذي كان سائدًا عند العرب، فلا نغالي إذا قلنا إنها كانت جزءًا جوهريًّا لحياتهم اليومية، حتى لنرى العربي إذا أراد السفر يتفاءل من السائح والبارح، وقد حكي أن: «الإسكندر تملك بعض البلاد فدخل هيكلاً فوجد فيه امرأة تنسج ثوبًا فقالت: أيها الملك أُعطيت ملكًا ذا طول وعرض، ثم دخل عليها والي بلدها، فقالت له: إن الإسكندر سيعزلك، فغضب فقالت: لا تغضب، إن النفوس تعلم أمورًا بعلامات، وإن الإسكندر لما دخل كنت أدير طول الثوب وعرضه، وأنت لما دخلت فرغت منه وأردت قطعه»[1] فارتقت العرافة من مبادئ الأوهام واتصلت بدقة الرؤية التي هي الفطرة الثانية عند العرب، واتخذت شكل قيافة الأثر وقيافة البشر، واشتهرت في هذه القيافة عدة قبائل، إلى حد أنه كان في استطاعة الرجل منها أن يقول إن الرجل والمرأة التي مرت بهذا الطريق من قبيلة كذا

---

(١) مدنية العرب لمحمد رشدي ص ١٩ مطبعة السعادة سنة ١٩١١م.

وكذا، ويرى أثرها على الأرض ويقول إنها متزوجة أو غير متزوجة وإنها بكر أو ثيب، وهكذا تطورت العرافة فاتصلت بالأصنام، وأخذ العربي يستقسم بالأزلام، وأصبح الكهان من الأطباء كما قال عروة:

فقلت لعرف اليمامة داوني فإنك إن داويتني لطبيب[1]

واختصار القول أنها تختلف عن الكهانة، وذلك أن نظرية الكهانة والرهبانية نظرية روحانية خالصة، ونظرية العرافة نظرية مادية محضة لأنها مبنية على الاستنباط من المحسوسات والعلامات، ونزوع العربي بالطبع يميل إلى المادة والدهرية كما حكاه الله تعالى عن عقيدة الجاهليين: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وما زالت هذه الفكرة تقطع مراحل التطور حتى ظهرت الأديان في جميع النواحي، وكان نفوذها مترامي الأطراف، فتلبد جو العربي الصافي، وتغيرت البيئة الاجتماعية في شبه الجزيرة، فظهرت الصابئة وانتشرت آراؤهم في عبادة الكواكب تقربًا إلى الله، وانتشر اليهود والنصارى في نجران وحول المدينة، وانتشرت الآراء المجوسية في وادي الفرات، فلم تسمح نظريات الأديان للفكرة العربية البدوية أن تتطور إلى طور فلسفي، فاضطرت عقلية العربي -أمام هذه النظريات القائمة- أن تتخذ منهجًا تقليديًا بدل المنهج الذي كانت تسلكه من قبل؛ وأكبر مظهر لهذا التحول هو أسلوب عيشة الجاهلي قُبيل الإسلام، فهو (كما قيل) مع كونه وثنيًا كان يعيش عيشة دينية مثل اليهود والنصارى والصابئة، فهو يحج ويعتمر بدل أن يقيم الأسواق القديمة مثل عكاظ وذي المجاز، ويعتقد شبه عقائد اليهود، ويعبد الأوثان كعبادة الصابئين للكواكب، لكن غرائزه الطبيعية كانت تسوقه إلى دين الآباء القدماء، فكان يخضع لسلطان الطبيعة أكثر من خضوعه لدين اليهود

(١) الشعر والشعراء ص ٣٩٦.

والنصارى، فهو يعبد الحجر والشجر، ويتخذ إله الصابئة واليهود، ويصفه بالصفات التي كان أسلافه الأولون يصفون الأوثان بها، فهو يميل إلى نظريات الصابئة واليهود تارة ويستهزئ بها تارة أخرى، لأنه دهري المزاج، والدين عنده أساطير الأولين، والبعث حديث خرافة، والأنبياء عنده من المجانين.

كان لدعاية اليهود والنصارى يد فعالة في تحويل تقاليد البداوة إلى تقاليد دينية راقية، وطبيعي في مثل هذه البيئة التي كانت سائدة في شبه الجزيرة قبل الإسلام أن تكون عقلية العربي في حالة من الاضطراب والفوضى، لكنه ليس من المستطاع أن نبحث عن عصر انتقال فكرة البداوة إلى الفكرة الدينية، وذلك لبعد عصر الانتقال عن عصر التاريخ.

في هذه البيئة نشأ العربي الجاهلي عصبي المزاج، سريع الغضب، الذي يحب الحرية والمساواة، والذي يثور على كل سلطة، ويهيج من كل شيء تافه، يمتاز بذلاقة اللسان وحضور البديهة واتزان الطبع، ويفضل الإيجاز على الإطناب، فهو يضرب المثل في جوامع الكلم، ويتصور الأشياء كما هي، ولا يسمح لخياله أن يتجاوز حدود الحقائق فلا يلوّنها بألوان قصصية، وإنما كما يقول أستاذي الجليل أحمد أمين: «يطوف حول الشيء فيقع منه على درر مختلفة الأنواع لا ينظمها عقد»[1].

ولهذا لا نجد عن العرب الشعر القصصي أو شعر الملاحم، إلا أن هذا لا يمنع من وجود خيال رائع وتشبيهات بديعة عندهم، وكذلك ردّ الأستاذ على الذين ينكرون هذا أيضًا مثل أوليري القائل بأن العربي ضعيف الخيال وجامد العواطف، فقال: «أما ضعف الخيال فلعل منشأه أن الناظر في شعر العرب لا يرى فيه أثرًا للشعر القصصي ولا التمثيلي، ولا يرى الملاحم الطويلة التي تشيد بذكر مفاخر الأمة

(١) فجر الإسلام ص ٥٢

كالياذة هوميروس وشاهنامة الفردوسي، ثم هم في عصورهم الحديثة ليس لهم خيال خصب في تأليف الروايات ونحو ذلك، ونحن مع اعتقادنا قصور العرب في هذا النوع من القول نرى أن هذا الضرب أحد مظاهر الخيال، لا مظهر الخيال كله، فالفخر والحماسة والوصف والتشبيه والمجاز، كل هذا ونحوه من مظاهر الخيال، والعرب قد أكثروا القول فيه كثرة استرعت الأنظار، وإن كان الابتكار فيه قليلاً، كذلك ما مُلئ به الشعر العربي من الغزل وبكاء الأطلال والديار وذكرى الأيام والحوادث، وما وصف به شعوره ووجدانه، وصور به التياعه وهيامه لا يمكن أن يصدر عن عواطف جامدة»[1]. فقد علمنا أن العربي له خيال وعواطف لكن ما عرفنا مقدار هذا الخيال وهل هو مثل خيال اليونان أو الهند؟

يجب أن نعرف نوع الخيال عند العرب لنعلم أنه يستطيع أن يولد الأسطورة، لأن الخيال مفتاح أبواب الخرافة، وأساس توليد الأساطير. ولكن قبل هذا: ما الخيال في حد ذاته؟ قيل: إن الخيال ملكة من ملكات العقل بها تمثل أشياء غائبة كأنها ماثلة حقًا لشعورنا ومشاعرنا، فقد تستطيع وأنت في مكتبك أن تتخيل مجلس أنس وطرب في ليلة من ليالي الصيف الصافية في ضوء القمر، ثم يمكنك أن تتصور من ذكرياتك ومشاهداتك السابقة صورة جديدة لا عهد لك بها من قبل، فذلك ما يسميه الناس على جهة التعميم ب «الخيال». ولهذه القوة العقلية وظائف ثلاث:

(١) تصور المستقبل.

(٢) تفهم المجهول من المعلوم.

(٣) الخروج من نطاق الحقيقة المألوفة واختراع ما هو أشبه بالحق وأقرب إلى الباطل.

أما تصور المستقبل فبمساعدة الماضي تحت تأثير الرغبة والأمل. فنتخيل الشيء

---

(١) فجر الإسلام ص ٤٣

المرغوب فيه ونسلك في الحال سلوك من أدركه فعلاً، فالفتاة الراغبة في الزواج يلعب في مخيلتها دور العروس في حالة الزفاف، وعناصر هذا التصور مأخوذة بلا ريب من الذاكرة، ولكن الرغبة هي المحركة لها، ثم نضطر إلى تصور المستقبل تحت ضغط الرؤية والتبصر، فننظر إلى ماضينا أولاً ثم إلى امتداده وهو المستقبل، على أننا لا نستطيع أن نتصور المستقبل إلى بمعلومات وتجارب سابقة تبعثها الرغبة. وأما تصور ما رآه أو سمعه غيرنا ولم نره ولم نسمع به نحن، فنستعين على تعرفه بالتخيل، فالحاكي يستعين بذاكرته على إعادة الماضي، والسامع يستعين بمخيلته على تصور ما يُلقى عليه، فهو يحاول أن يرى بفكرته ما رآه الآخر رأي العين، بأن يستعرض في ذهنه منظرًا مماثلاً لذلك الذي يصفه محدثه بما يثيره في نفسه ما يسمعه، وبما عنده من التجارب، فإذا كان المنظر غريبًا وجديدًا على السامع تعذر عليه تصوره؛ وعلى قوة هذا التصور ووضوحه في الذهن يتوقف الفهم والإدراك.

وأما تصور الشيء الموهوم مما لا وجود له في الخارج، أو تصور ما كان قريبًا من الواقع كل القرب أو بعيدًا عنه كل البعد، أو تصور ما يشبه الحق كل الشبه وهو باطل فيتجلى ذلك في الأحلام، فإننا كثيرًا ما نرى في المنام أمورًا باطلة يستحيل وقوعها، فالحالم يخادع نفسه ويتوهم أنه يتمتع فعلاً بما يحلم به.

ويخطئ بعض الناس في التعبير بكلمتي «التصور والتخيل» فيخلطون بينهما، والحقيقة خلاف هذا، إنما التصور كما أجمع على تعريفه علماء النفس، هو استرجاع الصور السابقة التي أثرت في الحواس من دون أن يكون لها وجود في عالم الحس يمثل الحالة التي وجدت عليها من قبل، وليس التصور بمقصور على المرئيات وإنما هناك أنواع كثيرة منه بحسب الحواس، فهناك تصور بصري وسمعي وشمي ولمسي وحركي، فإذا استرجعت صورة صديق لك فهذا التصور بصري، وإن استرجعت صوت مطرب فهذا التصور سمعي، أما إذا استرجعت الصورة التي سبق أن

أثرت في حواسك وأضفت إليها شيئًا من عندك، أو استرجعت عدة صور كونت منها صورة واحدة جديدة لم تؤثر في حواسك من قبل فهذا تخيل، فإذا تخيلت صورة لها رأس إنسان وجسم حيوان أو بالعكس فهذا تخيل. ولا يفوتنا هنا أن نقول: إن التصور أساس التخيل. وخلاصة هذا القول كما رأى وليم جيمس أن الخيال ينقسم إلى قسمين: «خيال تصوري (Reproductive Imagination) وخيال اختراعي ( Productive Imagination)»[1].

فالأمة العربية في الجاهلية تمتاز بخيال تصوري، فهي تتصور الأشياء وتسترجع التجارب، وبعبارة أخرى: إن العربي يأخذ شيئًا من المرئيات وشيئًا من المحسوسات ثم يركب منهما صورة ليست بجديدة، بل كما يشاهدها كل ذي عينين في عالم المرئيات، فيصفها في الحالة الذهنية المخصوصة لتلك الظروف ولا يضيف شيئًا من عنده، وذلك لأن عقليته محدودة في استرجاع الصور السابقة، ليس لديه تجارب التمدن والحضارة حتى يخلق منها شيئًا جديدًا. ونكتفي هنا بإيراد بعض أمثلة التشبيهات من المعلقات فقط، لأن بحث التشبيهات العربية ومقارنتها بتشبيهات الأمم الأخرى موضوع مستقل في حد ذاته، وليس لدينا فرصة وافية لبسط ذلك الموضوع المتسع في مقدمة وجيزة مثل هذه. وسنرى في تشبيهات أصحاب المعلقات أنهم يشبهون الناقة والفرس مثلاً بحيوان مثلهما قال امرؤ القيس:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل[2]

وقال طرفة بن العبد:

كأن حدوج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من دد

---

(1) Principles of Psychology By: William James P. ٤٤

(٢) القصائد العشر للتبريزي ص ٤٣، المطبعة السلفية بمصر.

وشبهها عنترة بالظليم:

فكأنما أقص الإكام عشية ... بقريب بين المنسمين مصلّم[1]

وشبهها الحارث بن حلزة بالنعامة فقال:

بزفوف كأنها هقلة ... أم رئال دوّية سقفاء

ويشبهها النابغة الذبياني بالثور الوحشي من أرض وجرة:

فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له ... وانم القُتود على عيرانة أُجُد[2]

من وحش وجرة موشيٍّ أكارعه ... طاوي المصير كسيف الصيقل الفَرَدِ

وقال عبيد بن الأبرص:

عيرانة مؤجد فقارها ... كأن حاركها كثيب[3]

كأنها من حَميرِ عانات ... جَونٌ بصفحته ندوب

وهكذا شبهها لبيد بأتان يتبعها حمار ثم ببقرة مسبوعة، وقال امرؤ القيس في تشبيه الفرس: «كجلمود صخر حطه السيل من علِ» ومثل ذلك التشبيهات القديمة كتشبيههم الناقة في الضخامة بالقصر والقنطرة، وفي الصلابة بالعلاة والصخرة، وفي السرعة بالجندلة والأثفية، وسرعة الفرس بنجاء الظبي، والسيد بالقرم، وهو فحل الإبل، والوجه الحسن بالشمس والقمر، وأهداج النساء بالسفن، والنجوم بالمصابيح، والنساء ببيض النعام، وقد ذكر أن الأخطل دخل على عبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين قد امتدحتك، فقال: إن كنت تشبهني بالحية والأسد

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي ص ١٨٤

(٢) شرح القصائد العشر ص ٢٩٢.

(٣) شرح القصائد العشر ص ٢٠٨.

فلا حاجة لي بشعرك[1].

وهذه التشبيهات تختلف عن تشبيهات العجم الذين يشبهون حصانًا بالبرق ويسمونه: «برق زقتار» و«فلك سير» (الذي يمشي على السماء) وبالهواء ويسمونه صبازقتار (الذي يمشي كهبوب الرياح) والشاعر الهندي شبه مشية البقرة بمشية المخمور يسكره الشباب المغرور[2]، وشبه ذهاب ابن إلى أمه في قصيدة قصصية بمرور خيل، وقال: «ذهب إلى أمه ساكتًا كدبيب الخيال» وقال شاعر من الهنود القدماء وهو يخاطب مركب النجم «تعال مع مركبك الذي هو أسرع من طروق الخيال» (Come Ye with that chariot swifter the Thought)[3] ومثل ذلك شبّه إقبال «سراج الليل» بالأشعة التي دبت فيها روح الحياة [4]، انظر إلى ابتكار تصور الشاعر الذي يرى حياة وروحًا في أشعة الشمس، وكذلك شبه «وردسورث» فيقويه «الصوت المتجول»: (Wandering voice)[5]، وشبه شيلي (Shelly) قنبرة (sky lark) بالفرح مجردًا عن المادة[6]، وشبه ابن المعتز الحصان فقال:

أسرع من ماء إلى تصويب ومن رجوع لحظة المريب[7]

وقال فيه أيضًا علي بن الجهم:

لا تراه العيون إلا خيالاً وهو مثل الخيال في الانطواء[8]

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٠١.

(٢) تاريخ أدب أردو.

(٣) Vedic Hymns, By E. J. Thomas p. ٢١

(٤) بانك دار (جرس القافلة) لإقبال.

(٥) Babylonian Literature «The second drean of early ride»

(٦) Golden treasury p. ٢٤٢

(٧) ديوان ابن المعتز ص ٢٩.

(٨) التشبيهات المشرقية ص ٢٤ مخطوطة.

وكذا نجد فرقاً كبيراً بين تشبيهات القدماء والشعراء المتأخرين.

وهاك مثالاً آخر، يشبه امرؤ القيس بعر الآرام بحب الفلفل، والشحم بهداب الدمقس المفتل، ويصف جيد عنزة بأنه كجيد الريم، وفرع شعرها كقنو النخلة المتعثكل، وكشحها كجديل مخصر، وساقها «كأنبوب السقي المذلل» وهكذا يشبه لبيد آثار الديار (الطلول) بالوشم، ويشبه عنترة الرماح بأشطان البعير؛ وكثير من شعراء الجاهلية يصفون صقل السيف بالماء كما قال عمرو بن كلثوم:

كأن متونهن متون غدر  تصفقها الرياح إذا جرينا

وهكذا شأن الشعراء المقلدين للآداب الجاهلية، بينما الشاعر البابلي يصف تلألؤ السيف في مبارزة أزدوبار بلهيب النار ولمعان الشهب. فإذا أمعنا النظر في تلك التشبيهات قلنا: إن هذه كلها ليست جديرة بأن تسمى بالتشبيهات لأنها مقارنة أعضاء الإنسان وأعماله بأعضاء الحيوان وأفعاله، أو قل: ما هي إلا موازنة شيء بشيء آخر، وقس على ذلك التشبيهات التالية، قال امرؤ القيس:

كأن ثبيراً في أفانين ودقه  كبير أناس في بجاد مزمل

ثم هو يقارن البرق بتحريك اليدين:

أصاح ترى برقاً أريك وميضه  كلمع اليدين في حبّي مكلل

وهكذا يقول أوس:

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه  في عارض كمضي الصبح لماح
دان مسف فويق الأرض هيدبه  يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنها بين أعلاه وأسفله  ريط منشرة أو ضوء مصباح

ونزيد على ذلك ما قال أستاذي الدكتور طه بك حسين في بيتين آخرين وهما

تشبيهان ماديان محسوسان بالبصر أيضًا[1] وهذا يؤيد ما قلناه آنفًا.

انظر إلى الشاعر المتأخر يصف السماء:

كأن سماءنا والشهب فيها وأصغرها لأكبرها مزاحم
بساط زمرد نثرت عليه دنانير تخالطها دراهم

وقال أبو هلال العسكري في الشمس:

والشمس واضحة الجبين كأنها وجه المليحة في الخمار الأزرق

هاك ابن طباطبا يقلد عقلية الجاهلية وبيئة البدو فيقول:

كأن سهيلاً والنجوم أمامه يعارضها - راع أمام قطيع[2]

وقال الشريف الرضي في الفرقدين:

كأنهما إلفان قال كلاهما لشخص أخيه: قل فإني سامع[3]

وقال امرؤ القيس في طول الليل:

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل
إلا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

بينما قال بشار الأعجمي:

أضل النهار المستنير طريقه أم الدهر ليل كله ليس يبرح

وقال ابن الأحنف:

---

(١) الأدب الجاهلي ص ٢٩١
(٢) نهاية الأرب للنويري.
(٣) نهاية الأرب للنويري.

أيها الراقدون حولي أعينو … ني على الليل حسبة واتجارا
حدثوني عن النهار حديثًا … أو صفوه فقد نسيت النهارا[1]

وكذلك يتجلى الخيال العربي حينما تقارن بين شاعرية أبي تمام العربي وشاعرية ابن الرومي كما وضحها الدكتور طه حسين بك في كتابه «من حديث الشعر والنثر» فالتشبيهات العربية الجاهلية مع كونها منظرًا بديعًا وصورًا جميلة لا تدل على ابتكار في التخيل، فأين هذه التشبيهات من تشبيهات المتحضرين، نعم لا يليق بنا أن نتوقع ذلك من العربي الذي كانت عقليته محصورة بين مشاهدات ومحسوسات بسيطة في العصر الذي نحن بصدده، إلا أنه لا يجب أن نؤمن بأنهم أرقى الأمم السامية، فهذا يهدينا إلى أن الفكرة العربية في ذلك الزمان لم تتجاوز المرئيات، ولذلك فإن العربي البدوي لم يتصور المعاني في حالة تجردها عن علاقة مادية، نعم لقد وصف عمرو بن كلثوم الحرب بالطاحون، وشبهها زهير بن أبي سلمى بالناقة اللقاح فقال:

فتعرككم عرك الرحى بثفالها … وتلقح كشافًا ثم تنتج فتُتئم

ولئن كان هذا يخالف ما قلنا آنفًا لأنه يدل على أنهم تصوروا المعاني المجردة في صورة خيالية، إلا أنه ليس كذلك في الحقيقة، بل الأمر كما قال التبريزي في شرح ذلك البيت[2]: «إنما شبه الحرب بالناقة لأنه جعل ما يحلب منها من الدماء بمنزلة ما يحلب من الناقة من اللبن، وقيل: شبه الحرب بالناقة إذا حملت ثم أرضعت ثم فطمت»، وفي هذا دليل على أنهم لم يجردوا الحرب في التصورات المذكورة عن الحقائق التي تنتج منها في عالم المشاهدات، خلاف ما نرى في التصور الروماني والإغريقي، فإنهم صوروا الحرب والشجاعة والحب والجمال وأشباه ذلك في معانٍ مجردة، ومع أنهم نحتوها على صورة الإنسان، غير أن هذه الآلهة أصبحت المثل

---

(١) أمالي ج١ ص ١٠٢.
(٢) شرح القصائد العشر للتبريزي ص ١١٣.

الأعلى، إلى حد لا نجد نظيرها في العالم الخارجي.

أما العرب فقد وصفوا أعمال أصحاب المروءة والشجاعة والوفاء، وضربوا الأمثال فقالوا: «أوفى من »، وذموا البخل ومدحوا السخاء، وأقاموا تمثالاً حيًا في حاتم الطائي من غير مغالاة خيالية؛ نعم كانت العرب تغلو في وصف الأبطال مثل وصفهم للعدائين (الشنفرى، وسليك، بن السلكة، وتأبط شرًا)، ووصفهم لزرقاء اليمامة التي كانت تنظر إلى مسيرة ثلاثة أيام، لكنهم لم يتجاوزوا بهم حدود البشرية ولم يرتقوا بهم إلى درجة الآلهة مثل أبطال اليونان في «الإلياذة» وأبطال العجم في «الشاهنامه» وأبطال الهند في «مهابهارت»: فالعرب لم يخلقوا أشخاصًا خرافية مثل قناطرة الجبال (جمع قنطورس وهو مخلوق خرافي كان يأوي إلى أكم تساليا وأجمها، وزعموا أنه له شطر إنسان قائمًا على شطر حصان)[1]، ولا مثل الإنسان الخرافي ذي الألف عين الذي نراه في ردجويدا (Rigvida)، ولم يمثلوا خلة من الخلال الفاضلة مجردة عن جميع العلاقات المادية، وشاعرهم كما رأينا فيما ذكرنا من التشبيهات لا يشبه، بل يقارن المرئيات بالمرئيات ويلونها بعواطفه ووجدانه، وينظمها في قلائد ألفاظ شعرية، وخيالهم خلاف خيال الآريين الذين يفضلون الرمز والإبهام على الصراحة والوضوح، وقد قيل أن كهان بريطانيا وأيرلندا مثل آلهة الهنود القدماء يحبون غوامض الأمور وخفيها [2]، هذا ما يتعلق بالتصور البصري عند العرب.

أما التصور السمعي فهو لا يقل شأنًا عن التصور البصري عندهم، فقد حُكي عن كعب الأحبار أن سليمان عليه السلام مر على بلبل فوق شجرة يحرك ذنبه ورأسه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال:

---

(١) الإلياذة تعريب سليمان البستاني ص ٢٢٥.

(٢) The growth of Literature. By Chadwich. Vol. II «Early Indian Literaturee p. ٥٨٩»

يقول «أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء»[1]، ومر بهدهد فأخبر أنه يقول: «إذا نزل القضاء عمي البصر» أو «من لا يَرحم لا يُرحم»، وصاحت طيطوى عنده فأخبر أنها تقول: «كل حي ميت وكل جديد بال» والورشان يقول: «لدوا للموات، وابنوا للخراب» والطاووس يقول: «كما تدين تدان»، وإذا صاحت العقاب تقول: «البعد عن الناس راحة»، والقطاة تقول: «من سكت سلم»، والنسر يقول: «يا ابن آدم عش ما شئت فإنك ميت».

وهذه الأقوال كلها كانت مضرب الأمثال عن العرب، فتعلم العربي هذه التجارب والنظريات في الحياة التي كانت مليئة بالفقر واليأس، ولقد دعته حياته الاجتماعية أن يلجأ إلى حمى أصحاب الشجاعة والكرم، أو إلى حمى الأصنام، أو إلى حمى المروءة والخلال الفاضلة التي كانت أساس نظم الحياة الاجتماعية في شبه جزيرة العرب، ولعل العربي أخذ هذه النظريات بمساعدة تصوره السمعي الذي طبقه على تفريد الطيور حسب وزن الأصوات، نظرًا لصعودها ونزولها.

أما الدليل الذي يؤيد القول بأن العرب كانت تأخذ الأقوال وتطبقها على أصوات الطيور، فما قيل من أن العرب تصف الفاختة بالكذب لأن صوتها عندهم: «هذا أوان الرطب»، وتقول ذلك والنخل لم يطلع؛ ولذلك يقال: «أكذب من فاختة»[2]. وهذا النوع من الخيال يظهر جليًا في الأساطير العربية.

أما ما يتعلق بفكرة غير مادية مثل فكرة الجن، فسوف نرى أن العربي لا يستطيع أن يتخيل صورة الجن كما يتخيلها اليونان والهند والفرس، فصورة الجن عند غير العرب من الأمم رهيبة مخيفة، ومبنية على مغالاة بعيدة عن القياس،

---

(١) حياة الحيوان ج١ ص ٨١.

(٢) حياة الحيوان للدميري ج١ ص ١٥٨

وتركيب أجسادها على خلاف المعهود، وأعمالها خارقة للعادات، لكن العرب توهموا الجن دائمًا في صورة الحيوان، مثل الحية والنعامة والقنفذ والأرنب، وسنبين هذا في «باب المذهب الطوتمي». وكذلك سنرى أن العقلية العربية القديمة تتصور الروح في شكل الهامة، والعمر الطويل في شكل النسر، والشجاعة في صورة الأسد، والأمانة في شكل الكلب، والصبر في الحمار، والمكر والدهاء في الثعلب ونحو ذلك. ولذلك نرى أنه من الصعب على العقلية العربية أن تفهم العقائد التي تتعلق بما بعد الطبيعة، لأنها لم تستعد بتجاربها السابقة لإدراك العقائد التي تفسرها الأديان كما قال الشاعر:

حياة ثم موت ثم نشر ... حديث خرافة يا أم عمرو

وكذلك العربي لا يفكر: من أين برز العالم وإلى أين يصير؟ كما يسأل الآري القديم مخاطبًا هبوب الرياح: «أين ولد الريح ومن أين يجيء؟»، وكما يسأل الأرض والسماء أيٌّ منهما الأول وأيٌّ هو الآخر[1]. لأنه يعرف ويعتقد في بعض القوى الطبيعة منذ عهد قديم، كما علّمته طبيعة مناخ البلاد نفسها أن الأشياء تخرج من القوة إلى الفعل، وأن العالم لم يزل ولا يزال، ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله كما قال السجاح بن سباع الضبي الجاهلي:

لقد طوفت في الآفاق حتى ... بليت وقد أنى لي لو أبيد[2]
وأفناني ولا يفنى نهار ... وليل كلما يمضي يعود
وشهر مستهل بعد شهر ... وحول بعده حول جديد
ومفقود عزيز الفقد تأتي ... منيته ومأمول وليد

هذه هي عقيدة المعطلين وأشهرهم قبيلة قريش، وما كان من نفوذ قريش على

---

(١) Vedic Hymns, p.٥٤ by: Thomas
(٢) ديوان الحماسة ج١ ص ٤٢٤ – مطبعة محمد علي بمصر

القبائل الأخرى لا يحتاج إلى مزيد تعريف. فالزمان عند العرب شيء أزلي يدبر نظام العالم ولا يتوقف عليه يسر الإنسان وعسره، وهو الذي يقدر أعمار الإنسان، ويمني له ما يتمنى، وهو المحيي والمميت كما قالوا: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية:٢٤]، فهو يصيب الإنسان بالأمراض النكاب والبؤس. فسعادة الإنسان وشقاوته تتوقفان على الدهر؛ ولذلك ترى الشعراء الجاهليين مغرمين بالتغني بأعمال الدهر وما يتعلق به فيصفونه بالرامي الذي لا يخطئ في الرماية، وبالساقي الذي يسقي الناس كأس المنية. قيل إن عمرو بن قميئة أنشأ هذه الأبيات لما تقدمت به السن، وهرمه الدهر:

| | |
|---|---|
| رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى | فما بال من يرمى وليس برام[1] |
| فلو أن ما أرمي بنبل رميتها | ولكنما أرمي بغير سهام |
| وأفنى ولا أفني من الدهر ليلة | وما يغن ما أفنيت سلك نظامي |

وكذلك قال شاعر آخر:

| | |
|---|---|
| أسلموا للمنون عبيد يغوث | وبعض الكهول حولاً يراها |
| بعد ألف سقوا المنية صرفًا | فأصابت في ذاك سعد مناها |

وهكذا كانوا يخلطون معنى الدهر بالقضاء والقدر.

لقد تطورت هذه العقيدة في الدهر والقدر والزمان إلى حد أن العربي خضع لسلطان «مناة وعوض» الذي قيل أنه صنم في معنى الدهر وقال فيه الشاعر:

| | |
|---|---|
| ولولا نبل عوض في | حظباي وأوصالي[2] |
| لطاعنت صدور الخيل طعنًا ليس بالآلي | |

(١) الأدب الجاهلي ص ٢٢٥.

(٢) ديوان الحماسة ص ٢١٤ ج١.

وإذا صحت هذه الرواية فقد صار الدهر إلهًا من آلهة العرب، وقد عبد الهذليون عوضًا، وقال رشيد الغنوي:

حلفت بمائرات حول عوض وأنصاب تركن لدى السّعير[1]

وانتشرت عبادة مناة في أنحاء شبه الجزيرة، وسوف نبينها في فصل «آلهة العرب» إن شاء الله.

ولكن لا يظن ظان أن ألوهية الدهر هذه قد تجاوزت علاقاتها المادية فقد قال داوسن: «عندما ننظر إلى الأسماء الإلهية نرى أول ما عرف الساميون من صفات الله في قدرته، ونراهم أبطئوا في معرفة الصفات الأخرى خاصة ثبوتها وعدم تغيرها، وبعبارة أخرى أبطئوا في فهم الإله كمثل أعلى لما فوق البشرية»[2].

وخلاصة القول: أني أذهب إلى أن العربي قليل الابتكار، وأن عقليته خالية من الخيال الاختراعي، لكن ذلك لم يمنعه من أن يكون له مثل أعلى في العاديات وفي تصور المحسوسات؟ وقد كان للعرب نظرة خاصة في الحياة كما قال مجمع ابن هلال الجاهلي:

وخيل كأسراب القطا قد وزعتها لها سَبَل فيه المنية تلمع[3]
شهدت وغنم قد هويت ولذة أتيت وماذا العيش إلا التمتع

وقال طرفة بن العبد:

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟

(١) لسان (مور)
(٢) Davidsons, Theology if Old testament
(٣) ديوان الحماسة ص ٣٠٢ ج١

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي[1]

فكان للعربي غاية من الحياة يسعى وراءها. وإذا لم يضع الكلمة التي تعبر عن المثل الأعلى، فذلك لأنه لم يحتج إلى ذلك. لأن غاية الحياة كانت واحدة مشتركة وسائدة في جميع أفراد الأمة بدون أن يشعر إلى أين يسعى - وكذلك الحال مع أكثر الناس في يومنا هذا - ولو لم تكن للحياة غاية عند العرب فماذا أراد امرؤ القيس إذ قال:

فلو أنما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليلاً من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي[2]

فهذه الغاية -أو المثل الأعلى- كانت عند العرب هي «الخلود»، وقد كان في مبدأ الأمر خلودًا أو بقاءًا ماديًا، وأقوى شاهد على ذلك نجده في الأساطير العربية، فقد قيل: كان الملك ذو القرنين يفكر ويحلم أنه يملك الأرض ومن عليها، وقيل إنه كان يسخر الشمس والقمر حتى وصل مع الخضر إلى عين الحياة ليشرب الماء الذي يعطيه حياة أبدية لكنه مع ذلك[3]. وكذلك قيل أن لقمان بن عاد اختار طول عمره فكان من دعائه حين سأل طول العمر:

اللهم يا رب البحار الخضر والأرض ذات النبت بعد القطر

أسألك عمرًا فوق كل عمر

فنودي أن قد أعطيت ما سألت، ولا سبيل إلى الخلود فاختر إن شئت بقاء سبع بعرات من ظبيات عفر في جبل وعر لا يمسها قطر، وإن شئت بقاء سبعة أنسر سحر، كلما هلك نسر أعقب نسر، فكان اختياره بقاء النسور[4]، فبينما لقمان يدور ذات

(١) معلقة طرفة بن العبد

(٢) عمدة الأديب للأستاذ سليم الجندي ص ٥٩ المجلد الأول في امرؤ القيس طبعة دمشق.

(٣) كتاب التيجان ص ٩١

(٤) التيجان، أخبار عبيد بن شرية ص ٣٥٦ طبعة حيدر آباد.

يوم في جبل أبي قبيس بمكة سمع مناديًا لا يرى شخصه وهو يقول:

«يا لقمان بن عاد المغرور ببقاء النسور، اطلع رأس ثبير ليس يعدو قدرك المقدور»، فطلع رأس ثبير، فإذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخيهما، فاختار لقمان أحد الفرخين، ثم عقد في رجله سيرًا ليعرفه، وسماه المصون، ثم قال المصون الخالص المكنون[1] من بيت المصون ومحظور السنون وعبْط العيون والباقي بعد الحصون إلى آخر الدهر الخئون؛ فكان لا يغفل عن إطعامه حتى تم طائرًا مسخرًا له يدعوه باسمه للمأكل فيجيبه، حتى أدركه الكبر فضعف، فلم يطق أن يطير فبينما لقمان يطعمه لحمًا قد بضعه له إذ غصّ ببضعة منه فخر ميتًا، فجزع لذلك جزعًا شديدًا، وقال: هذا بلاء، ووقعت الواقعة مثل ذلك مع كل نسر مثله: «عوض، وخلف، ومغيب، وميسرة، وأنسا؛ إلى أن جاء دور السابع وهو لبد»[2].

(وفسر عبيد أن اللبد في لغة العرب بمعنى الدهر)، فلما دنا أجل لقمان وبلغ الميقات أقبل ذلك النسر «لبد» حتى وقع على شجرة الرطب فدعاه ليطعمه من لحم قد بضعه، فأراد «لبد» أن ينهض فلم يطق أن يطير، فأقبل لقمان فزعًا حتى قام تحته وقال: انهض لبد أنت الأبد لا تقطع بي الأمد، فلم يطق لبد أن ينهض وتفسخ ريشه، فهال ذلك لقمان هولاً عظيمًا، ووقع موته منه موقعًا جسيمًا، فأنشأ لقمان يبكي نفسه، ثم سقط لبد ميتًا، فجاء لقمان ينهض فاضطربت عروق ظهره وخر ميتًا.

هذه الأسطورة تمثل غاية الحياة عند العرب القدماء، وهكذا كان الشعراء يتعظون بموت إخوانهم وينعون على الدهر خيانته، ويبكون على القدر المحتوم مهما

---

(١) التيجان، أخبار عبيد بن شرية ص ٢٥٧ طبعة حيدر آباد.

(٢) أسماء النسور.

طال العمر والبقاء، وباب القبور في كتاب الإكليل[1] ملآن بأساطير من هذا القبيل، فيروى أنهم حفروا في الحيرة فوجدوا بيتًا، فدخلوه فأصابوا فيه رجلاً على سرير من رخام عليه حلتان، وإذا عند رأسه كتاب «أنا عبد المسيح بن بقيله»

| | |
|---|---|
| حلبت الدهر أشطره حياتي | ونلت من المنى بَلَغ المزيد |
| وكافحت الأمور وكافحتني | فلم أخلع لميمتها بسرودي |
| وكدت أنال في الشرف الثريا | ولكن لا سبيل إلى الخلود |

وقد ألف أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني كتابًا مستقلاً في أخبار المعمَّرين الذين عاشوا -أو قيل أنهم عاشوا- مائة وعشرين فما فوق.

هذا ما اتجه إليه المفكرون، لكنا نجد شكلاً آخر من هذا الخلود في التقاليد العربية، وأقوى برهان عليه أن الأمة العربية تهتم تمام الاهتمام بأن تجعل المروءة والثأر والعصبية شعارًا قوميًا احتفاظًا بتقاليدهم القديمة، والذي أملى على العرب اتخاذ هذه الخلال هو شعور سام برغبتهم في إحياء الذكرى وبقاء تنظيم الحياة الاجتماعية، فقصوا الأقاصيص حول الأشخاص البارزين في أوصاف المروءة مثل حاتم الطائي في الجود والكرم، وعلقمة وتأبط شرًا والشنفرى في الشجاعة، والسموأل في الأمانة والوفاء وغير ذلك، ووضعوا أمثالاً لموعظة الناس كما قيل: «كان الرجل في الجاهلية إذا غدر وأخفر الذمة جعل له تمثال من طين ونصب وقيل «ألا إن فلانًا قد غدر»، وقد قال الشاعر: «ولنجعلن لظالم تمثالاً».

أما شأن العربي في ربط العلة بالمعلول فإنه مهما كان ضعيف التعليل في ربط المادة بالروح والروحانية، لم يكن ضعيفًا في الاستنتاج من المحسوسات. أما اعتقاده أن دم الرئيس يشفي الكلب، وأن سبب المرض روح شرير حل فيه، فيداويه بما

---

(١) الإكليل ص ١٧٧، ١٧٨

يطرد هذه الأرواح، أو أنه إذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتعليق الأقذار وعظام الموتى، إلى كثير من أمثال ذلك، فهذا كله لا يدل على عدم المقدرة على التعليل، بل هو من أوهام الناس، وأمثال هذه الأوهام نجدها في أمم قوية التعليل كاليونان والرومان، فالمرض الذي يسمونه عين الملك (Scrofula = Kings eye) كان الفرنج يعالجونه بريق الملك.

وكثير من الأمم في دور البداوة كانوا يحسبون أن سبب الجنون حلول روح شرير في جسد الإنسان، وكانوا يداوونه بالضغط على صدر المجنون وعلى بطنه كي يخرج الروح الشرير من جسده، وكم من الناس في يومنا هذا يتوهمون أنه إذا اختلجت عينه فسوف يحدث كذا وكذا.

وقصارى القول: أن العربي كما قلت آنفًا لا يفكر في أين ينتهي العالم، بل إنه يرى العظماء الذين كانوا ذوي قوة وبأس وحكمة وفراسة لم تتركهم على قيد الحياة رماية الدهر والمنية، ويرى أن كل شيء من عالم المرئيات يزول ويفنى. فقد لعبت طسم وجديس وعاد وثمود دورهم على مسرح الحياة وزالوا، وتغلب عليهم الفناء ولحقوا بآبائهم الأولين إلا الليل والنهار والشمس والقمر والدهر والفلك، فكل أولئك على حالة واحدة غير متغيرة منذ الأزل، ولا تزال مستمرة على ذلك إلى الآن، فهو يفكر إذا ما فكر في: ما هو الموت؟ وكيف نتحرز من يديه الباطشتين؟ ولأي سبب يبقى النهار والليل أبديين وليس لنا البقاء؟ ثم هو يستنتج من الحوادث اليومية استنتاجًا استقرائيًا ينتهي به إلى أن الموت يتوقف على القضاء والقدر، وما الليل والنهار إلا الدهر كما قال الغَطمّش الضبي:

أقول وقد فاضت بعيني عبرة ... أرى الدهر يبقى والأخلاء تذهب

أخلاي لو غير الحمام أصابكم[1] عتبت ولكن ما على الدهر معتب

فما السبيل إلى إرضاء هذا الدهر وتحصيل البقاء؟ لهذا هو يختار شعارًا مخصوصًا لحياته البدوية في شكل اجتماعي.

تبيَّن لنا أن العربي كان يخضع لسلطان المروءة أكثر من خضوعه لسلطان الدين والآلهة، وكان يتنافس في الأخذ بالثأر، وكان يستميت عصبية حبًا للكرامة والحرية والمساواة والأخوة؛ فلما تطور التفكير العربي البدوي، وتأثر بعقائد الأديان المجاورة، نبغ المفكرون وجعلوا ينتقدون البداوة، وأخذوا يفسرون عبادة الأوثان حسب دواعي العصور، فأصبح تصورهم أشبه بالتخيل.

قلت سابقًا أن العربي قليل الابتكار، ولم أقل إنه عار من الخيال دائمًا، إلا أن التصور أو الخيال التصوري هو الغالب والمسلط على حياته العقلية؛ وهذا الخيال التصوري يولد الأسطورة التصورية، كما يصنع الخيالُ الأساطير الاختراعية؛ ولذلك نرى العربي يمثل نجوم السماء بما يشاهده في البيداء، وينقل شكل حياته الاجتماعية البدوية على رقعة السماء، غير أنه لا يخترع الأساطير مثل اليونان؛ والعربي ليس بمقصور على هذا الحد من التصور، بل نجده يربط الصور بعضها ببعض كربط حياته اليومية، فهو يرى في السماء صورة الراعي وكلبه[2]، ويتصور على الفلك صورة الناقة والرجل الذي بيده غول[3] وكلبه؛ ذلك إلى أنه ينظم هذه الصور في قلادة واحدة. كأنما يريد أن يؤلف من تلك الأجزاء المبعثرة قصة تمثل حياته البدوية، فهو يتصور مع الراعي وكلبه قفزات الظباء ووثبة الأسد وحوض الماء (يشبه الشعراء المجرة بالنهر)، فإذا وثب الأسد وقفزت الظباء لجأ الراعي مع غنمه

---

(١) لسان (عتب)

(٢) الصور والكواكب، مخطوط دار الكتب المصرية.

(٣) الصور والكواكب، مخطوط دار الكتب المصرية.

وكلبه إلى الحوض. وكذلك يرى أن النوء العواء كأنها خمسة أكلب تعوي خلف الأسد؛ ثم هو يضع قصة تصورية من نجوم الدبران والعيوق، ومن سهيل والغميصاء؛ كما أنه يذكر أسطورة عن الزهرة، فهذه كلها صور رائعة، وشبه خيال قصصي.

وإذا رجعنا إلى بعض أبيات وأساطير الأدب الجاهلي رأينا الصنم يغوث يشترك في حروب العرب القبلية، كما نرى العربي يستغيث ويستنصر «هبل» في غزوة أحد، ثم هو يشخّص الأشجار والأحجار، ويبدل الإنسان في الحجر والشجر والنجوم، ويرى الحياة في الشمس والقمر، لكنه لم يُلبس المعاني جسمًا ولم يجعل لها شخصًا كما بينا سابقًا. نعم لقد تصور العربي الجوع في صورة الحية، لكن تصوره حية تولد وتنشأ في بطن الإنسان وسماه «صفرًا» فهو لم يتمثل الجوع في صورة الحية بل رأى الجوع نفسه هو ثعبان البطن.

وبعد: فقد رأينا جميع أشكال الأسطورة عند العرب فهل يستطيع أحد بعدئذ أن يرتاب في قابلية العقلية العربية لتوليد الأساطير؟

**وخلاصة القول**: أن العربي محدود الخيال من ناحية التخيل الاختراعي، وواسع الخيال من ناحية التخيل التصوري، فهو ممتاز في التخيل التصوري ومجيد له، والأسطورة تتولد من الخيال التصوري كما تتولد من التخيل الاختراعي، وهو يتصور الأشياء ولا يخترع القصص حولها، ويقيم الأوثان في هيئة يرسمها ويلونها بألوان التصوير لا بألوان التخيل.

فإذا أردنا أن نبحث أسطورة عربية فعلينا أن نراها في خيال تصوري أكثر مما نراها في خيال اختراعي. وإذا أردنا أن نبحث عن العربي الذي ينسج الأسطورة فيجب أن نرى ذلك العربي حين يلعب بالألفاظ، وهكذا شأنه في يومنا هذا كما قال أستاذي الجليل الدكتور طه بك حسين: «فالبدوي الآن فصيح كالبدوي القديم،

حلو الحديث، محب للسمر والقصص إذا اطمأن واستراح، خطيب بليغ إذا كان بينه وين غيره خصومة أو جدال»[1].

هذا وقد مرّ تفكير الأمة العربية بأطوار يسميها علماء الميثولوجيا بطور ما قبل المذهب الحيوي (Preanmism) ثم طور المذهب الحيوي (Animism) ثم طور المذهب الطوتمي (Totemism) ثم تعدد الآلهة (Pobytheism) ويتبعه فكرة وحدة الإله (Monotheism) ولم نختر هذه الأطوار لأنها أطوار مستقرة ولازمة لكل أمة، بل اخترناها لأنها تمهد السبيل لتوزيع الأساطير المتنوعة في أبواب وفق نوعية الأسطورة، ثم تسهل الطريق للوصول من المعلوم إلى المجهول. وسنبدأ بالمذهب الحيوي لأننا بينا كثيرًا من طور ما قبل المذهب الحيوي في تحليل عقلية العرب ونفسيتها.

---

(١) الحياة الأدبية في جزيرة العرب ص ٢٥.

# الباب الثاني

# المذهب الحيوي

# الفصل الأول
# نظرية المذهب الحيوي

الضرورة أُمّ الاختراع، وما الضرورة إلى تجربة البشر في حياتهم المبتدئة، ولقد سعى الإنسان القديم وراء قضاء تلك الضروريات سعيًا كسعي الطفل في حداثة سنه حين يتمرن على المشي، فكانت هذه الضروريات بسيطة ومحدودة في أول الأمر، ثم استقرت وأخذت مكان العادات والتقاليد، فالإنسان القديم قبيل انتقال الضروريات القديمة من حالة التجربة إلى حالة التقليد لم ينظر إليها بنظر فلسفي، ولم يبالغ في تفسير تلك التجارب مثل مبالغتنا، ذلك لأن المبالغة والتفلسف هي طريقتنا، وليست طريقة الإنسان القديم، فهو لا يعرف تأليف القضايا التي تتركب من الأسباب والعلل، بل هو يدون الأساطير التي تمثل آراءه في شكل مادي مشخص ومصور؛ هذا هو شأنه في فهم الحياة المخبوءة وراء الستار الطبيعي وقد قيل أن الإنسان عرف الروح بعدما فكر في بعض التجارب مثل النوم والحلم والظل والسراب والنفس والموت، واتسعت هذه الفكرة عنده فهدته إلى معرفة الجن والروح، وما زالت تتسع شيئًا فشيئًا حتى غشى الطبيعة بالأرواح.

بدأ ابن آدم حياته العقلية بمعرفة المادة والماديات، واتسعت فكرته هذه في معرفة مظاهر الحياة على جهة التعميم، فظن أنه لا فرق بينه وبين الموجودات في العصر الذي عرف فيه نفسه، أي شخصيته الثانية المستورة التي دعيت بالروح فيما بعد. وقد حملت الإنسان مظاهر الحياة مثل النوم ومشاهدة كل ما يجري من الحوادث في الحلم أن يعتقد أنه ذو شخصيتين، الشخصية الأولى هي القالب المادي، والشخصية الثانية هي التي تتراءى له في الحلم، وبعد ما عرف الإنسان الأول الشخصية الثانية أخذ يطبقها على الأشياء جميعها، فحسب في الحجر الصامت والشجر النامي شخصية مستورة مثل شخصيته في جسده، وأصبحت الموجودات التي

كانت كلها في نظره عالم الجمادات والسكوت الخاضع لنواميس الطبيعة ذات عالم حيوي كعالم الحلم في ذات نفسه.

هكذا بدأ الإنسان الأول يرى في كل مظهر من مظاهر الطبيعة حياة كما كان يشعر بها في نفسه، وذلك لأن القوة الفكرية في حالة الطفولة لا تستطيع التفرقة بين المادة وغير المادة، كما لا يستطيع الطفل أن يميز بين الضار والنافع: رأى النجوم تجري في فلك السماء، والأشجار تنمو في الأرض وفوق الجبال، ورأى خروج النار من بطن الشجر الأخضر والحجر الصامت، فوقف حائرًا أمام هذه الغرائب كلها، فاكتفت عقليته المتحيرة بأن تحسبها أشخاصًا مثل شخصيته وأن لها حياة مثل حياته.

بدأت هذه الفكرة عند الإنسان في العصر الذي كان لا يميز فيه بين الجمادات والحيوانات، وما يزال المتوحش إلى يومنا هذا لا يفرق بين أفراد الموجودات، بل هو يجهل الفرق بين الجماد والحياة التي تظهر لنا كمظهر الشمس، حتى إنه ليقدس الأشياء حيث لا يجوز تقديسها. وطبيعي أن يفهم المتوحش أن الإنسان يشبه إنسانًا آخر أكثر مما يشبه الحيوان، وأنه يشبه الحيوان أكثر من النبات، والنبات يشبهه أكثر من الحجر، لكن الأشياء كلها ذات شخصية لديه، والفرق عنده إنما هو فرق في الصور واختلاف بسيط في الأشكال. أما الحقيقة فهي هي، وهذا النظر يشبه عقيدة أصحاب وحدة الوجود إلى يومنا هذا، إلا أن المتوحش لم يتفلسف مثل فلسفة أصحاب تلك العقيدة، ولم يعرف حقيقة ما وراء الطبيعة، بل حصر نفسه بادئ ذي بدء في حدود الطبيعة نفسها، ورأى الحقيقة التي لا حقيقة بعدها هي هذه الطبيعة التي يراها بعينيه ويلمسها بيديه، ثم امتد به فكره إلى أفق أبعد، فجعل صلة بينه وبين الموجودات كصلة الأبوة والأمومة والأخوة، ثم جاوز ذلك فقدس الموجودات إجلالاً وحفظًا لكرامة الأسلاف.

وفي فهرس الأصنام نجد أسماء الأشياء الطبيعية مثل الشمس والقمر والأرض والسماء والشجر والحجر، وقد جعل الإنسان علاقته بها كعلاقة العبد بالمعبود، فخاطبها كما كان يخاطب الإله. لم تكن النصب عن الإنسان المتوحش رمزًا لإله، وإنما جسدًا له ومركزًا لنشاطه كما كان جسد الإنسان المركز الدائم لنشاط الإنسان، وذلك لأن الإنسان في نظره ليس بعفريت ولا بشبح ولا حياة بغير جسد، بل هو جسد صامت مع حياة متحركة، وهذه الحياة المستورة التي يتخيلها في النبات والشجر والحجر جعلته يتوهم أن الأشياء المقدسة كلها ذوات حياة مستورة مثل حياته.

رأى المتوحش في الحجر والشجر والحيوان حياة وشخصية كحياته وشخصيته، ولم يَرَ نفسه أرفع من الجماد منزلة أو اسمى منه مقامًا فوشج الصلة بين نفسه وبين الجمادات واعتقد أن الصلة بينه وبينها صلة العبد بالمعبود (ودليل ذلك ما نرى في الأساطير القديمة) فالأسطورة اليونانية التي تتعلق بخلق الإنسان تحدثنا أن آدم خلق من طين بينما أن بعض الأمم الهمجية ترى أن الإنسان الأول خرج من بطن الأشجار والأحجار[1]، وكثير من الأساطير التي توجد عند قبائل إفريقيا وأستراليا ومدغشقر وبورنيو ترى الإنسان من نسل الحيوان والأشجار[2]، وتوجد هذه الأساطير أيضًا عند الساميين؛ فعند الساميين الشماليين أن الأم التي حبلت (بحمل) الأدنسس (Adenses) تحولت في شجر المر الكاوي Murh في الشهر العاشر من حملها وولدت الشجرة الطفل الذي صار إلهًا فيما بعد[3]. ومثل ذلك ما نرى في الأسطورة البابلية التي تقول:

---

(1) Folklore in the old testament Vol I p. ٦

(2) Folkolore in the old testament Vol. ١ p. ٢٤.٢٦, ٤١.

(3) Page ٢٣٧ Golden Bongh Myth of Adonyses

إن الحيوان خلق من الأرض التي امتزجت بدم الإله (مردوخ)[1].

وقد ذكر «رابرتسن است» أخبارًا كثيرة من هذا القبيل في كتابه «أديان الساميين» (R.S. page ٤٧)، وأدب الساميين مثل الأدب البابلي مملوء بالأساطير التي تدل على وجود المذهب الحيوي عندهم.

(١) Seven tablet of Creation

## الفصل الثاني

## المذهب الحيوي عند العرب

وجود المذهب الحيوي عند الساميين لا يستلزم ثبوته عند العرب فما الدليل على ذلك؟ لقد بينا أن العربي يميل بالطبع إلى المادة، يحب الطبيعة حب العاشق الهائم لحبيبته، ولذلك يجيد وصف الطبيعة، والأدب الجاهلي مملوء بالمناظر الطبيعية وبالتشبيهات الرائعة، والشاعر الجاهلي يبكي على الأطلال ويصغّر من الشدائد التي احتملها من الأعداء في سبيل الحب، سواء أكانت الأعداء من الإنسان أو من الكائنات كما قال الشاعر:

وليل كموج البحر أرخى سدوله          علـيّ بـأنواع الهـموم ليبـتلي

ثم هو يصف الناقة أو الحصان الذي ركب عليه ليوصله إلى من يرومه، فهذا الوصف وأمثاله يدل على شدة شغفه بالطبيعة، فالطبيعة هي مركز النشاط لتصور البدوي، والمسرح الذي تهيج فيه عواطف العربي الجاهلي والسلطة الوحيدة التي يخضع أمام سلطانها العربي القوي العنيد - فهو يلجأ إلى ظل الشجر والجبل بالنهار، ويسامر القمر والنجوم بالليل، وليس الشجر والجبال التي تحيط به في الصحراء الوعساء بأشياء عزيزة فحسب، بل هي أنيسه وسميره، وهي ذات حياة كحياته.

ولكن ما الحياة التي توجد في الشجر النامي والحجر البركاني كما توجد في الحيوان جميعًا؟ وإذا كانت الحياة خارجة عن الطبيعة فليست هي كذلك في تصور العرب، لأن الطبيعة هي المذهب والحقيقة التي لا حقيقة بعدها عندهم. والواقع أن النفس كانت عند العرب عبارة عن دم الحياة كما كانت عند الإسرائيليين[1]، قال

(1) Religion of the Semites, Foot note. page ٤٠

المسعودي: يتنازع الناس في كيفيتها (الروح)، فمنهم من زعم أن النفس هي الدم وأن الروح الهواء الذي كان في باطن الجسم الإنساني الذي منه نفسه، ولذلك سموا المرأة نفساء[1]، وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان فإذا مات أو قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً له في صورة الطائر يصدح في قبره[2]، وروى الألوسي: مما كانت العرب كالمجتمعة عليه «الهامة» وذلك أنهم كانوا يقولون: ليس من ميت يموت أو قتيل يقتل إلا وخرج من رأسه هامة، فإذا كان قتل ولم يؤخذ بثأره نادت الهامة على قبره: اسقوني فإني صدية[3] وقال الشاعر الجاهلي:

يا عمرو إلا تذر شتمي ومنقصتي ... أضربك حتى تقول الهامة

فهذا كله يهدينا إلى أن العرب القدماء دهشوا من مظاهر الحياة دهشة الأمم الهمجية، فبحثوا عن حقيقتها، فلما رأوا أنه ما دام الدم يجري في شريان الإنسان فهو حي، فإذا أريق عن جسده فهو ميت كما قالوا: مات حتف أنفه، قالوا: إن الدم هو الحياة ثم لاحظوا أن النفس جزء منهم في الحياة، فقالوا: إن الحياة عبارة عن الهواء الذي في باطن جسم المرء، وظلت هذه الفكرة مدة من الزمان، فأتى جيل بالغوا في تصور النفس الذي يتكون من الدم والهواء حتى اعتقدوه طيراً من الطيور التي لها علاقة بالتشاؤم، وهذا الطير هو البومة التي تمثل الخراب والفساد والموت عند الأمم.

ومن هذا الذي عرضناه يثبت أن العربي لم يتصور حقيقة الحياة أو الروح خارجاً عن المادة، فكيف والحالة هذه نسلّم أنه عرف الحقيقة الخالدة المستورة وراء

(١) مروج الذهب للمسعودي ص ٢٠٩ مطبعة (Seciete Asiatique)

(٢) المسعودي ص ٢١٠.

(٣) بلوغ الأرب الجزء الثاني ص ٣١٢

(٤) روي: ياعمر ألا تدع شتمي ومنقصتي.

الحجب الطبيعية. أو عرف معنى الروح في العصر الذي كانت الهامة تمثل الروح في تصوره، وكلما أمكن تشريح أقوال الرواة في هذا الصدد استطعنا أن نقول أن العربي إذا كان عرف الروح فقد عرفه في العصر الذي انتشرت فيه الصابئة واليهود، لا في العصر الذي سادت فيه أسطورة الروح المذكورة إذ كنت الحياة عبارة عن الطبيعة نفسها، ويؤكد ذلك أن نرى كيف كان اليهود ينظرون إلى العرب حتى في عصر بدء الإسلام، فقد ورد في تفسير الطبري، حدثنا أبو هشام، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: كنت مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة ومعه عسيب يتوكأ عليه فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم: اسألوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، فقام متوكئًا على عسيبه فقمت خلفه فظننت أنه يوحى إليه فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥] فقال بعضهم لبعض: «ألم نقل لكم لا تسألوه»[١].

ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل اختلف أهل التأويل في الروح المسئول عنه، قال بعضهم: هو جبريل لأنه الروح الأمين، وروي عن علي أنه قال: الروح ملك له مائة ألف رأس، لكل رأس مائة ألف وجه، في كل وجه مائة ألف فم، في كل فم مائة ألف لسان[٢].

أما صاحب لسان العرب فاقتصر على أن الروح نسيم الهواء وكذلك نسيم كل شيء، فهذا هو الأصح بالنسبة إلى الفكرة العربية لأن العرب أنفسهم كانوا معترفين بعجزهم عن فهم الروح والروحانيات كما قيل: بعثت قريش النضر بن حارث ومعه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصِفَا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم

(١) تفسير ابن جرير الطبري المجلد الخامس عشر ص ١٠٤
(٢) الروض الأنف ص ١٩٦

ليس عندنا من علم الأنبياء[1].

هكذا كان شأن العربي بإزاء الروح والروحانيات، وإذا كان العربي لم يعرف الروح، فكيف نثبت له مذهبًا حيويًا؟ صحيح أن العربي العادي لم يعرف حقيقة فوق الطبيعة، لكن لا أقصد بذلك أنه لا يستطيع التمييز بين الرطب والجاف، وبين الجامد والسائل، وبين الحي والميت، وبديهي أنه يرى الشجر والحجر ساكتين وصامتين، ويرى في الجمل والحصان حياة وحركة، كما يرى السكون شيئًا والحركة شيئًا آخر، والجماد شيئًا والحيوان شيئًا آخر، فلا يبعد أن تكون الحياة عنده عبارة عن الحركة التي هي ضد السكون، وذلك ليس ببعيد عن القياس، لأن الحياة يراد بها الحركة نفسها عند الكلدانيين كما قيل أن الروح أو زي (Zi) عندهم عبارة عن ظهور الحياة، وكان اختبار ظهور الحياة هذه الحركة[2]، وكذلك كانت كلمة أتما (Atma) عند الهند القدماء، وكلمة (Aeom) عند الأنجلو سكسون (.Anglo Sax) عبارة عن التنفس في مبدأ الأمر[3]. وهذه الفكرة تنطبق على تصورات دينية قديمة، لأن المتوحش أينما يجد حركة في شيء يحسبه ذا حياة مستورة عن حواسه، فلا غرو إذا قلنا: إن العربي كان يبحث عن معنى الروح في الحركة نفسها، لأن الروح في الأسطورة العربية طائر تدركه الأبصار وتلمسه الأيدي لا شيء فوق الطبيعة، وهذا التصور ليس بوهم من أوهام الشعراء ولا من مخترعات الخيال، بل حقيقة واضحة وعقيدة مألوفة عند العرب جميعًا.

أما تصور الروح في شكل الطير، فليس بشيء غريب خاص بالعرب لأنه يوجد عند الأمم جميعًا في دور بداوتها. فقبائل الهنود في أمريكا يعتقدون أن الطيور التي

(١) سيرة ابن هشام ص ١٠٢

(٢) Religion of Primitive peoples by Brinton p. ٤٩

(٣) Chadwicks Growth of Literature, Vol II p. ٥٨٦

تحلق في الجو ما هي إلا أرواح آبائهم الأولين، وكذلك الأزدكيون والبوهاتيون في أرجنيا يقولون: إن أرواح الشهداء تكسى لباس الطيور المغردة وتقفز من زهرة إلى زهرة في ضوء الشمس[1].

وقصارى القول: أن الروح عبارة عن الحياة الطبيعية أو الحركة عند المتوحشين وكذلك كانت عند العرب. وهنا نصادف صعوبة أخرى في تفسير تفكير العرب إذ كانت العرب تعتقد في الجن والهواتف والغول والسعلاة، وهذا كله يدل على أنهم كانوا يعتقدون في شيء غير مادي وغير عنصري وهو يخالف ما قلنا في عقيدة العرب في الروح، وكذلك إذا أمعنا النظر رأينا أن الجن والغول وأشباه ذلك ما هي إلا صنف من الحيوان في تصور العرب القدماء، وسوف نفسره في باب المذهب الطوتمي إن شاء الله، أما إثبات أن العرب رأوا في الشجر والحجر حياة كحياتهم، فسنستدل عليه بالأساطير التي حكيت عن حياة العرب الاجتماعية.

والذي يظهر لنا في عقائد العرب القدماء بأجلى مظاهر شغف أهل البادية بحكاية مسخ الإنسان حجرًا أو شجرًا أو حيوانًا، فقيل مثلاً: إن الصفا والمروة كانتا رجلا وامرأة ثم مسخا[2] حجرين، وهكذا قالوا في أساف ونائلة[3].

وكذلك قيل: إن العربي لم يأكل الضب لأنه كان يظنه شخصًا إسرائيليًا ثم مسخ[4]. وروى الدميري عن مسلم عن أبي سعيد وجابر قالا: إن النبي ﷺ أُتِيَ بضب فأبى أن يأكله وقال: «لا أدري لعله من القرون التي مسخت» وقال الدميري فيما بعد: «أما حديث الضب والفأر فكان ذلك قبل أن يوحى إليه ﷺ» فيتبين من كل هذا

(1) P.٦. Mylhs And Legends of Ancient Egypt By Lewis Spince

(2) عجائب المخلوقات للقزويني تحت الجبال.

(3) حياة الحيوان للدميري.

(4) أخبار مكة للأزرقي ص٦٩، ٧٦.

أن فكرة المسخ كانت منتشرة في شبة الجزيرة قبل الإسلام ويؤيد ذلك ما قال المقريزي أن «بوادي حضرموت بالقرب منه على مسيرة يومين إلى نجد قوم يقال لهم «الصيعر» يسكنون القفر في أودية، وفرقة منهم تنقلب ذئابًا ضارية أيام القحط، وإذا أراد أن يخرج أحدهم من مسلاخ الذئب إلى هيئة الإنسان وصورته تمرغ بالأرض وإذا به يرجع بشرًا سويًا. وقال: إن في وادي حضرموت قبائل، منها البراوجة والجلاهية والنباتة وآل أبي مالك وآل مسلم وآل ابن ربيع وآل أبي الحشرج، وجميع هذه القبائل لها أحوال عجيبة، منها أن الرجل منهم يمر في الهواء ليلاً من حضرموت، وقد انقلب في هيئة طائر كالرخمة والحدأة حتى يبلغ أرض الهند[1]. وقيل: إن بخت نصر مسخ أسدًا فكان ملك السباع. ويعتقد بعض القبائل إلى يومنا هذا أن قبيلة بني صخر من أولاد جبل رملي يقع قريبًا من مدائن صالح[2].

وهكذا كثرت رواية القصص التي تتعلق بمسخ الإنسان حيوانًا وأحجارًا في شبه جزيرة العرب، واختلف الناس في المسخ، فمنهم من زعم أن المسخ لا يتناسل ولا يبقى، ومنهم من زعم أنه يبقى ويتناسل، حتى جعل الضب والأرانب والكلاب من أولاد تلك الأمم التي مسخت في هذه الصور[3]. ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل كانوا يخالون أنهم يسمعون من أجواف الأوثان همهمة[4]. وكانوا يخاطبون الجبل كما يخاطب الرجل أخاه، كما قيل: كان المشركون إذا أرادوا الإفاضة قالوا: «أشرق يا ثبير كيما نغير» وكانت الشمس تشرق من ناحية جبل ثبير[5].

---

(١) الطرفة الغريبة؛ أخبار وادي حضرموت العجيبة؛ لأحمد على عبد القادر بن محمد المقريزي ص ١٩، ٢٠.

(٢) P.١٧ Doughy's Arabia deserta.

(٣) الحيوان للجاحظ المجلد الرابع ص ٢٣.

(٤) كتاب الأصنام ص ١٢.

(٥) «ثبير» معجم البلدان.

وكانت الجبال تؤثر في حياة الإنسان، كما كان للشاعر والكهان أثر في حياته الاجتماعية، فكان من تأثير جبل أبي قبيس أنه يزيل وجع الرأس، ومن تأثير جبل خودقور أنه يعلّم السحر.

أما الشجر فلم يكن أقل شأنًا في حياة العرب الاجتماعية، فكان العربي يجعل القرابة بينه وبين النخل كما روي عن النبي ﷺ: «**أكرموا عماتكم النخل**»، قال القزويني: «إنما سماها عماتنا لأنها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام»، وأما الضمير في «عماتكم» فيدل على أن النبي ﷺ أراد به إظهار عقلية الجاهلية فكلم الناس على قدر عقولهم. ولم يكن غريبًا أن يتوهم العربي القرابة بينه وبين النخل، وذلك لأن عقله البسيط رأى شبه الإنسانية في النخلة، فهي تشبه الإنسان من حيث امتياز ذكَرِها عن أنثاها ومميزاتها المخصوصة باللقاح. فقد قال القزويني[1]: (ولو قطع رأسها لهلكت، ولها غلاف كالمشيمة التي يكون الجنين فيها، والجمار الذي على رأسها لو أصابته آفة لهلكت كهيئة مخ الإنسان إذا أصابته آفة، ولو قطع منها غصن لا يرجع بدله كعضو الإنسان، وعليها ليف كالشعر يكون على الإنسان. وروي عن صاحب الفلاحة أنه إذا لم يثمر بعض النخل يأخذ رجل فأسًا ويقرب منه ويقول لغيره: إني أريد قطع هذه الشجرة لأنها لا تثمر، فيقول آخر: لا تفعل فإنها تثمر في هذه السنة، فيقول الرجل: إنها لا تفعل شيئًا، ويضربها ضربتين أو ثلاثًا، فيمسك الآخر بيده ويقول: لا تفعل فإنها شجرة حسنة، واصبر عليها هذه السنة، فإن لم تثمر فاصنع بها ما شئت. قال: فإذا فعل ذلك فإن الشجرة تثمر ثمرًا كثيرًا، وكذلك غير النخل من الأشجار إذا فعل به هذا يثمر.

وقال أيضًا: إذا قاربت بين ذكران من النخل وإناثها فإنها يكثر حملها، لأنها

---

(١) عجائب المخلوقات للقزويني ص٢٣١ «غيرنا بعض الكلمات نظراً لأغلاط الطباعة».

تستأنس بالمجاورة وإذا قطع إلفها من الذكران فلا تحمل شيئا لفراقها، وإذا غرست الذكران وسط الإناث فهبت الريح فخالطت الإناث رائحة طلع الذكر حملت من تلك الرائحة كل أنثى حوله، وإن اتخذت لها منطقة من الأسرب يكثر ثمرها). وكذلك كان اعتقادهم في الرتم، لأنهم كانوا يرون في الأشجار حياة وشعورًا مثلهم، فكان العربي يجعلها رقيبًا وحارسًا على زوجته في مدة غيابه كما قيل إن العرب في الجاهلية كانو إذا أراد أحدهم أن يسافر عن حليلته عمد إلى هذه الشجرة وشد غصنًا منها إلى الآخر وتركها، فإذا عاد من سفره ذهب إليها فإن وجدهما بحالهما مشدودين استدل بهما على أن حليلته ما خانته في غيبته وإن وجدهما محلولين استدل بهما على خيانتها[1].

وكذلك كانوا يعملون في الشجر العشر وقالوا إنها سم قاتل، فالمحتمل أن تكون الشجرة من الأشجار المخيفة في مبدأ الأمر لكونها سمًّا قاتلاً لذلك خافوا من قرينتها، وبعد مرور الزمان أصبح الخوف هذا تقليدًا من تقاليد العرب الجاهلية، وكانت العرب إذا ولدت المرأة منهم أخذوا دم السمر ويسمونه بحيض السمرة وهو صمغه الذي يسيل منه فينقطون منه بين عين النفساء ويخطون على وجه الصبي خطًّا خوفًا عليه من الخطفة والنظرة ويسمونه بالنفرات. ذلك إلى أن العربي كان يعبد الأشجار ويرى فيها روح الشر مثل الحماطة، وهي شجرة شبيهة بالتين، وهو أحب الشجر إلى الحيات، أو العشر التي كانت العرب تظنها مسكن الشياطين قبيل الإسلام.

وإذا كان العلم بالجن والشياطين علمًا حديثًا وفكرة دينية، فإن وجود فكرة مثل هذه تدل نفسها على أن تلك الأشجار كانت ذات حيوية عند العرب، وأن هذه

---

(١) بلوغ الأرب ج٢ ٢١٦.

الحيوية تحولت في صورة الشياطين في عصر الأديان، كما أصبحت الآلهة القديمة جنًّا في عصر اليهود والنصارى؛ فتطور حيوية الأشجار في أرواح الشياطين إنما كان وقت انتشار الأديان في شبه جزيرة العرب. ومن ذلك ما قيل من أن العزّى وهي من آلهة العرب القدماء كانت شيطانة. أما ظهور العُزى على ثلاث شجرات سمرات فهو يدل على الفكرة؛ لأن الأشجار التي كانت تمثل روح الشجر نفسه أصبحت محل حلول تلك الأرواح التي تقيم فيه وتهجره كيفما تشاء.

فهذه العقيدة تدل على أن هذه الفكرة تطورت من حيوية الشجر إلى ألوهيته. وههنا نلاحظ أن فكرة البادية انتقلت من طوْر إلى طور آخر وهو أن حيوية الشجر والحجر تطورت إلى صورة الجن و الأرواح التي تسكنه، فأصبحت الأشجار والأحجار من بقايا تبركات تلك الأرواح، وهذه الفكرة المعكوسة، إنما هي ردّ فعل لتطور الحيوية وهو ما نسميه بالمذهب الحيوي نجد المذهب الفيتشي (Fetishism) فحيثما وجدنا المذهب الحيوي في أثره. فوجود الواحد في أمة من الأمم يستدعي وجود الآخر فيها لأنهما مذهبان متلازمان.

أما الفرق بين المذهب الفيتشي والمذهب الحيوي فهو أن النُّصُب في المذهب الحيوي هو الشخصية الوحيدة للإله المنسوب إليه، وفي المذهب الفيتشي ليس بإله بل محل للإله المتجول في الآفاق.

وكذلك المذهب الطوتمي يختلف عن المذهب الفيتشي بأن الشيء في المذهب الفيتشي ينفذ أوامر الإله المتسلط عليه، لكون الشيء في المذهب الطوتمي هو ملجأ الجاهليين ومأواهم، فالطوتم هو الإله، وآثار الطوتم مطية الإله. فالمذهب الفيتشي يتعلق بتقديس الأشياء كبيرة كانت أو صغيرة، طبيعية كانت أو مصنوعة؛ ويرى أن لكل مادة من تلك الأشياء روحًا تحتل الجسم أو تتصل به ولها سلطان على الأجسام الأخرى، كما قيل: إن عبيد غابة كانوا إذا خرجوا إلى السفر أقسموا أمام أول

كائن يبصرونه أنهم يخصونه بأنواع العبادة إذا وفقوا في سفرتهم، فعبدوا لذلك الأشجار وأغصانها وجذورها وقشورها والعظم والريش والناب والمخلب والحافر والسن والظفر والحجر وأنواع الحيوانات وآلات الحرب والشمس والقمر وغير ذلك، معتقدين أن لها قوة مؤثرة وقدموا لها القرابين باعتبار الروح التي تتصل بها أو تحتلها، واتخذوها تميمة تقيهم عوادي الأيام؛ وهذه ديانة كل الأمم المتوحشة، واعتنق هذا الدين كثير من العرب[1]، فكانوا يعتقدون أن سبب المرض روح شرير حل فيه، فيداوونه بما يطرد هذه الأرواح، وإذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتعليق الأقذار وعظام الموتى، وإذا أراد رجل دخول القرية فخاف وباءها أو جنيها وقف على بابها قبل أن يدخلها فنهق نهيق الحمار[2]، ثم علق عليه كعب أرنب، كأن ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن، وسموا هذا النهيق التعشير، وقال شاعر:

ولا ينفع التعشير إن حم واقع ولا زعزع يغني ولا كعب أرنب

وكذلك كانت[3] العرب تعلق على الصبي سن ثعلب وسن هرة خوفاً من الخطف والنظرة، ومن مذاهب العرب أيضاً تعليق الحلي[4] والجلاجل على اللديغ يرون أنه بتلك يفيق[5]، وكان الغلام منهم إذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال: يا شمس أبدليني بأحسن منها. وهكذا كان شأنهم في بعض تقاليدهم مثل الرتم والنفرات والاستمطار بالبقر وغير ذلك[6].

(١) أديان العرب لمحمد نعمان الجارم ص١٢٢ مطبعة السعادة بمصر.
(٢) بلوغ الأرب ج٢ ص٣١٥.
(٣)بلوغ الأرب ج٢ ص٣٢٥.
(٤)بلوغ الأرب ج٢ ص٣١٤.
(٥)بلوغ الأرب ج٢ ص٣١٨.
(٦) بلوغ الأرب للألوسي.

# الباب الثالث

# المذهب الطوتمي

# الفصل الأول

## نظرية المذهب الطوتمي

### ١- تعريف الطوتمية

الطوتمية كلمة أبجوية (Objeway) من هنود أمريكا دخلت في اللغة الإنجليزية سنة ألف وسبعمائة وإحدى وتسعين على يد الأستاذ جي لانج (J.Lang) الذي كان يقوم بوظيفة الترجمان بين البيض والهنود الحمراء في أمريكا الشمالية؛ ويراد بها كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمة، وقد يكون الطوتم حيوانًا أو نباتًا، وهو يحمي صاحبه ويبعث إليه الأحلام اللذيذة، وصاحبه يحترمه ويقدسه، فإذا كان حيوانًا فلا يقدم على قتله، أو نباتًا فلا يقطعه ولا يأكله إلا في الأزمة الشديدة[١].

### ٢- نظرات الطوتمية

اختلف العلماء في بدء الطوتمية، وذهب الباحثون فيه مذاهب شتى، فمنهم من قال: إن الطوتمية ترمي إلى نشاط تعاوني في الأعمال لتجهيز المواد الأولية مقدار كبير لأفراد القبيلة، ومنهم من قال: إن الطوتم كان في مبدأ الأمر بهيمًا وحشيًا، ووجد في بيئة بحرية، ومن ثم نشأ الإنسان الذي ينتسب إلى جده الطوتمي؛ فهاتان النظريتان دعتا إلى قيام مدرستين[٢]، فمن أساتذة المدرسة الأولى بريرت استيد الذي قال: «إن الطوتمية بدأت من سوء تفسير الألقاب» Midintepretation of neck-names

---

(١) Eneyclopedia Britanca and Totemism & exagomy

(٢) Eneyclopedia Britanca and Totemism & exagomy

»[1]. وأرد بذلك أن المتوحشين سموا أنفسهم بالأشياء الطبيعية التي اختلطت باسماء الأسلاف، ثم تقدست تلك الأشياء مع تقديس الآباء على مرور الزمان، فاعترض عليه المعترضون بأن سوء التفسير لا يؤثر عادة في الحياة الاجتماعية إلى هذا الحد، فأقام فريزر (Frazer) مدرسة أخرى وزعم أن الطوتمية عند القبائل في وسط أستراليا -لو صح استباطنا من طقوس إنتيجيوما (Intichiuma)- تدل على أنها نظام قائم على قواعد السحر والطلسم، ويريد به أهل الطوتم استكثار المواد لسد الحاجة[2]؛ وافقه أخيرا على ذلك «سبنسر» إذ قال: «إن الطوتمية في اعتبارها الديني قديمة جدًا»، أما اعتبارها الاجتماعي المستمر إلى يومنا عند قبائل أستراليا فهو طراز جديد، فاتفقت كلتا المدرستين على كون الطوتمية دينية بحتة في مبدئها- ثم تفرعت إلى نوعين، نوع ديني وآخر اجتماعي، فمن الوجهة الدينية يسمى أفراد القبائل أنفسهم باسماء الطوتم، ويعتقدون أنه أب للقبيلة، وأنهم من نسله، فمن قبائل[3] ايروكو (uquoisrI) من هنود أمريكا قبيلة تعرف بقبيلة السلحفاة، وأخرى تعرف بقبيلة الذئب والدب، وهم يعتقدون أنهم من نسل الدب والذئب، وتنتمي قبيلة أوبجيويس (Objways) إلى الكلب، كما كان الكركي أبًا لقبيلة أوبجيويس[4]، وكما كانا الإوز أبًا لقبيلة سنتال في بنغال[5] ؛ وقس على ذلك قبائل في غرب استراليا تنسب إلى البط أو الأوز أو غيرها من الطيور المائية[6]، فكل هذه الحيوانات كانت تُحترم وتُقدس، وكانت القبيلة لا تؤذي طوتمها ولا تقتله ولا تأكله، والرجل

---

(١) P.٣٦٧ Princpales of Soceology
(٢) P.٨٧. Totemism & Exagomy By Frazer
(٣) اعتبارات قديمة.
(٤) P.٥. Totemism & Exagomy
(٥) P.٥. Totemism & Exagomy
(٦) P.٧. Totemism & Exagomy

من قبيلة موت جامبير (Mount jambier)[1] في جنوب أستراليا لا يأكل طوتمه إلا إذا عضه الجوع، وإذا أكله أسف واستغفر، وكذلك الهنود في كولومبيا البريطانية (Bristish Columbia) لا يأكلون طوتمهم؛ وإذا رأوا أحدًا يأكله اشمأزوا وطلبوا منه غرامة.

٣- وإذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل أهلها بدفنه، وحزنوا عليه حزنهم على واحد منهم، ففي قبيلة البومة في ساموا (Samoa) إذا وجد أحد رجالها بومة ميتة فإنه يقعد إلى جانبها ويأخذ في الندب والبكاء ويضرب جبينه بالحجارة حتى يدميه، ثم يكفن البومة ويحملها إلى المدفن كما يفعل إذا مات الإنسان.

٤- ولا يقتصر احترامهم للطوتم على تحريم أكله أو إيذائه فإن بعضهم يحرم لمسه والنظر إليه، وقد يحرمون التلفظ باسم الطوتم، وإذا اضطروا إلى ذكره عمدوا إلى الكناية أو الإشارة. فمن هنود دولاورس[2] (Delawarse) في أمريكا قبيلة تنسب إلى الذئب وأخرى إلى السلحفاة وأخرى إلى ديك الحبش فإذا اضطروا إلى ذكرها كنوا عن الأول بالقدم المستديرة، وعن الثاني بالزاحف وعن الثالث بغير الناصع، والقبائل المذكورة تعرف بهذه الكنايات.

٥- ويعتقدون أن من أهان الطوتم أو أساء إليه يصاب بالمصائب والنكبات، فقبيلة باكالي[3] (Bakali) تعتقد أن من يأكل طوتمه تلد نساء قبيلته حيوانات مثل الطوتم أو يموت بمرض مهلك، وبعضهم يتوهم أن آكل طوتمه يجازى بالموت بأن يقيم الطوتم في بدنه ولا يزال يأكل منه حتى يموت.

---

(١) P.٨. Totenism & Exagomy

(٢) P.١٦. Totemism & Exagimy by Frazer

(٣) P.١٦. Totemism & Exagimy by Frazer

ويزمنون من الجهة الأخرى بأن من احترم الطوتم احترمه الطوتم أيضًا فإذا كان الطوتم في سنغمبيا (Senegambia) من السباع أو من الحيات أو من العقارب فإنهم لايخافون لسعها(١)، لأنهم على ثقة أن الحية لا تلسعهم. وفي أوماها (Omaha) يداوي أصحاب الطب المريض بتصوير صورة طوتمه أو يحكون صوته أو عمله حينما يعالجونه.

٦- وكذلك يتوهم أصحاب الطوتم أن الطوتم يُنذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه بعلامات أو رموز على نحو ما يعبر عنه بالفال والطيرة، فإذا طار البوم أمام قبيلة البومة وقت خروجهم إلى الحرب تفاءلوا به، وإذا طار وراءهم تشاءموا منه ورجعوا من حيث أتوا[٢].

أما الطوتمية من الوجهة الاجتماعية فمظهرها تعاقد أهل القبيلة فيما بينهم باعتبار علاقتها بالقبائل الأخرى، وكانت الروابط الطوتمية هذه أشد ما تكون بين أفراد العائلة الواحدة المبنية على صلة الرحم، ويتبين هذا جليًا في قبائل أستراليا الغربية وأمريكا الشمالية الغربية[٣] ؛ ففي قبائل جيجروس (Geojiros) إذا أراد الرجل الانتحار أو الإضرار بنفسه فعليه الدية.

ومن أهم الروابط الطوتمية أن رجال الطوتم الواحد ونساءه لا يتزوجون من قبيلتهم، وهو ما يعبر عنه علماء العمران بالزواج الخارجي، ومن يخالف تلك الشريعة يعاقب بالموت في أستراليا[٤]. وعند الهنود الكريك (Creek)[٥] لا تتزوج قبيلة الذئب

---

P.٢٠. Totemism & Exagimy by Frazer(١)

P. ٣٣. Totemism & Exagomy by Frazer (٢)

Totemism & Exagomy by Frazer p.٥٣ (٣)

Totemism & Exagomy by Frazer p.٥٤ (٤)

Totemism & Exagomy by Frazer p.٥٦ (٥)

من قبيلة الذئب الأخرى، لأن هذا يؤدي إلى الأمومة، إذ المولود في هذه الشريعة ينتسب إلى الأم ويتبع طوتم أمه، لا طوتم أبيه، كما هو معروف عند قبائل أستراليا وأمريكا الشمالية[1].

غير أن هذه ليست قاعدة مطردة، لأن هناك قبائل تنتسب إلى الأب كما تنتسب إلى الأم[2]. كما أن قبائل أخرى وجدت وهي ليست مبنية على الزواج الخارجي، فقد قيل أن قبيلة آرنتا في وسط أستراليا تعتقد أن المرأة تحمل بدخول روح من أرواح النبات والحيوان السالفة التي تنتقل من مكان إلى مكان في جسدها، فالولادة هي عودة ذلك الروح في شكل المولود، كما كانت الروح التي دخلت في المرأة وقت ظهور الحمل هي الطوتم المولود.

وتختلف قبيلة آرنتا عن القبائل الأخرى بأنها مع اعترافها بتقمص الروح الحيواني في شكل المولود فإنها تنسب تلك الأرواح إلى حجر تسميه الشرنجة ( Churinga)؛ فهذه الطوتمية غير وراثية وليست مبنية على الزواج الخارجي، لأن الطوتم بانتسابه لذلك الحجر ولتلك الأرواح المتعلقة بأمكنة متعددة صار طوتماً محليًا. فإن الطوتم قد يخرج من قبيلته الأصلية ويدخل في قبيلة أخرى،كما أنه يستطيع أن يخطب امرأة تحمل الطوتم مثله[3].

والخلاصة أن العلماء اختلفوا في بدء الطوتمية وفي أغراضها وفي أسبابها ونظرياتها، واعتباراتها، وظهر من هذه الاختلافات المتباينة أن بدء الطوتمية غير محدود ومتعذر تحديده لبعدها عن عمر التاريخ، وكل ما نعرف عن هذه الطوتمية أن أمة همجية في دور بدواتها كانت تقدس النبات والحيوان، وفي أكثر الأحوال

---

(١) Totemism & Exagomy

(٢) Totemism & Exagomy p.٦٦& ٦٧

(٣) Encyciopdia Britanica "Totemism"

كانت تعتقد بعلاقة بينها وبين الحيوان المنسوب إليها.

فالطوتم بالنظر إلى التقاليد المختلفة عند عدة قبائل يظهر في ثلاث طبقات: أولاً الطوتم القبلي، وثانيًا الطوتم الجنسي. وثالثًا الطوتم الشخصي، وتختلف الطوتمية عن الديانة الفيتشية بأن الطوتم لم يكن شيئا منفردًا بذاته، بل هو يمثل جماعة من جنس واحد بخلاف العبادة الفيتشية.

وإذا كانت الطوتمية هذه تحتاج إلى تحديد نظريتها، فماذا يكون شأن الاعتبارات والشرائط التي يهتم بها العلماء اهتمامًا عظيمًا، فمن يقول إنه يستلزم الأمومة لأن الأبوة متأخرة عن الأمومة، فلا أرى لزامًا أو داعيًا لثبوت الطوتمية وذلك لأن الأمومة نتيجة من نتائج الطوتمية الاجتماعية، وذلك لا يحصل إلا بعد تطور الطوتمية من الوجهة الدينية إلى الوجهة الاجتماعية، فلا يلزمنا لثبوت الطوتمية أن نثبت الزواج الخارجي والأمومة لأنها تولد منها ولا تولد منهما.

# الفصل الثاني

## المذهب الطوتمي عند العرب

بدأت الطوتمية عند المتوحشين ولا نعرف كيف كانت نشأتها، وكذلك نرى آثار الطوتمية عند العرب ولا نعرف كيف كان منشؤها في الجاهلية، وقد استمرت الطوتمية عند الأمم الهمجية ولا تزال عند قبائل أستراليا وجنوب أمريكا وإفريقيا والهند كما كانت عند العرب القدماء، ولا تزال آثارها ظاهرة في أخبار الجاهليين فعلينا أن ننظر في الآثار الباقية عن عرب الجاهلية لنتبين مبلغ ما فيها من العقائد الطوتمية.

أما الطوتمية فمبنية على اعتبارين: اعتبار ديني واعتبار اجتماعي، وتختلف القبائل بعضها عن بعض بهذين الاعتبارين وفق البيئة المحلية، وهما متلازمان عند البعض، وينفرد الاعتبار الاجتماعي وحده عند البعض الآخر، كما أن الطوتمية باعتبارها الديني توجد في الأقاليم التي ذهبت عنها الطوتمية باعتبارها الاجتماعي[1].

فلنبحث الطوتمية من وجهتها الاجتماعية عن العرب. وللطوتمية الاجتماعية ثلاثة مظاهر: (١) التعاون المتبادل (٢) الزواج الخارجي (٣) الأمومة.

### التعاون المتبادل:

كانت القبيلة أو الشعب عند العرب تتفرع إلى عشائر وبطون وأفخاذ ونحو ذلك، وكان لكل قبيلة بئر وكلأ وأودية خاصة بها كحِمى كليب بن وائل وزمزم، وكانت سلطة الشيوخ على القبائل العربية كما نعلمه محدودة، ولأن العرب

---

(١) P.٢: Totemism & Exagomy Frazer

كانوا أهل حل وترحال يغيرون شيوخهم بتغيير أماكنهم. وكان تخصيص الرجل من رجال العرب بانتساب القبيلة إليه دون غيره من قومه هو أن يشتهر اسمه برياسة أو شجاعة أو كثرة ولد أو غيره فتنسب بنوه وسائر أعقابه إليه، وربما انتسب إليه غير أعقابه من عشيرته كإخوته ونحوهم فيقال: فلان الطائي، فإذا أتى من عقبه من اشتهر منهم أيضًا لسبب من الأسباب المتقدمة نسبت إليه بنوه فجعلت قبيلة ثانية[1] بل كان الرجل من بني كلاب يستطيع أن ينسب إلى بني أسد لأجل شجاعته[2]، وهذا خلاف ما يرى أهل الطوتم في قبائلهم لأن قبيلة أسد عندهم لن ينسب أحدها إلى قبيلة كلب.

ومع أن أفراد القبيلة الواحدة يعدون إخوة وأخوات يتعاونون في السراء والضراء كما قالوا: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[3]، فقد كانت الحروب تسود بين بطون القبيلة الواحدة إذا تشعبت بطونها كالعداوة بين ربيعه ومضر وبين عبس وذبيان، وبكر وتغلب، والأوس والخزرج، وعبد شمس وهاشم.

وأحيانًا كانت القبائل العربية تساعد المظلوم ضد بطونها، وكان الفرد يحارب قبيلته نفسها كما يقال: «أغار ناس من شيبان على رجل من بني العنبر يقال له قريط بن أنيف وأخذوا ثلاثين بعيرًا، فاستنجد قومه فلم ينجدوه، فأتى بني مازن فركب معه نفر فأطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه وخرجوا معه حتى صاروا إلى قومه فقال قريط:[4]

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

(١) صبح الأعشى ج١ ص٢١.
(٢) ديوان الحماسة المجلد الأول ص١٢.
(٣) كما يقال له حليف بني فلان.
(٤) ديوان الحماسة المجلد الأول ص١٢.

وهذا أيضًا يخالف الشريعة الطوتمية، لأن الشريعة الطوتمية تلزم أصحاب الطوتم الواحد أن يتعانوا على أصحاب الطوتم الآخر إذا نشبت الحرب فيقاتل الرجل عن زوجته والولد عن أبيه وأمه.

### الزواج الخارجي:

إذا نظرنا إلى أنواع الزواج الخارجي عند العرب وجدنا أن العربي لم ينظر إلى الزواج الخارجي من حيث هو الشريعة المطردة؛ لأن الباحثين عن الأمومة اضطروا أن يسلّموا بوجود أربعة روابط في الجاهلية وهي: النكاح الشرعي[1] ونكاح الاستبضاع[2]، ونكاح[3] يجتمع الرهط فيه ما دون العشرة ونكاح آخر يجتمع فيه الناس الكثير، ونكاح آخر يجتمع فيه الناس الكثير[4]، فنصوص هذه الزيجات الأربع لا تقيد الرجل أو المرأة بأن لا يتزوجا من داخل قبيلتيهما، وهاك نصا تاريخيا من المعجم الجغرافي للسائح اليوناني الشهير استرابون (Strabo) حيث قال في أمر الزواج عند العرب: «كانوا يعاقبون الزاني بالموت، والزاني عندهم من جامع امرأة من غير عشيرته»[5].

فهذا نص يهدينا إلى أن الشريعة المعتادة عند العرب أن يتزوج الرجل من داخل عشيرته، والواقع أن هذه العادة المتأصلة في أخلاقهم أجيالاً ما تزال إلى يومنا هذا، فالبدو لا يزالون يفضلون أكبر أبناء العم في حق التزوج بابنة عمه[6]، وكان العرب

---

(١) الجزء السادس من صحيح البخاري.

(٢)الجزء السادس من صحيح البخاري.

(٣)الجزء السادس من صحيح البخاري.

(٤)الجزء السادس من صحيح البخاري.

(٥) P.٢٩٥ " the Geography of Strabo Volume VII edited by.I.L page Litt.D.

(٦) P.١٢٧ " The manners & Customs of Rewala Bedowins by Alois Musil ١٩٢٨ edition.

يقولون إذا تزوجت في غربية: «لا أيسرتِ ولا أذكرت، فإنك تدنين البعداء وتلدين الأعداء».

فإن دلت هذه الأقوال والآثار على شيء فإنها تدل على الزواج الداخلي عند العرب، أما القول بأن سماحهم بالزواج بين أبناء العمومة خلافًا للمأثور عنهم عن ذم الزواج بين الأقارب يدل على نظام الأمومة، فهو تعليل كما يرى الأستاذ ناشد سيفين[1] يكون صحيحًا إذا ثبت أن الزواج بين الأقارب غير أبناء العمومة كان ممنوعًا عند العرب.

**وخلاصة القول:** أن القرشي كان يفضل القرشية خلاف المأثور عن ذم الزواج بين الأقارب، ولهذا أرى الأقوال الحكيمة مثل «النزايع لا القرائب» إنما هي تجارب متأخرة عن تلك العادة القديمة المتأصلة، فهذا الزواج الداخلي عند العرب يخالف الشريعة الطوتمية التي تلزم قبيلة الذئب منه أن لا يتزوج من بين نساء قبيلة الذئب - ولكن لا أريد بهذا الزعم أن أقول: إن العرب حصروا الزواج في داخل لقبيلة، بل أريد أنهم لم يكونوا شديدي التمسك بشعيرة الزواج كأصحاب الطوتم في أستراليا وأمريكا.

## الأمومة

الأمومة عند القبائل الطوتمية تختلف في مظاهرها باختلاف القبائل أو البلاد، ففي بعض القبائل الأسترالية يرث الابن طوتم أبيه، وترث البنت طوتم أمها كما روي عن قبيلة ديري (Dieri) في جنوب أستراليا[2].

---

(١) مجلة المقتطف يناير سنة ١٩٣١ مجلد (٧٨).

(٢) Totemism p.٦٩.

ووجد في أستراليا كثير من القبائل ينتمي بعضها إلى الأم وبعضها إلى الأب، فليس من الضروري أن تنسب القبيلة الطوتمية إلى الأمومة دائمًا، فقد قيل: «إن الأبوة والأمومة ليست إحدهما بأقدم في العهد من الأخرى، فيجوز أن تبتدئ القبائل بالأبوة والأخرى بالأمومة فلا يستطيع أحد أن يحتج بأنه لم يكن كذلك»[1]. بناء على ذلك لا أرى داعيًا للتمحيص عن الأمومة عند العرب، لأن ثبوت الأمومة يتوقف على ثبوت الطوتمية الاجتماعية لا العكس، كما أني لا أناقش جميع الأدلة التي جاء بها ولكن (G.A.Wilkin) في مقالته «الأمومة عند العرب» مقتنعًا بما رد به الأستاذ ناشد سيفين في مجلة المقتطف (يناير سنة ١٣١ مجلد ٧٨)، بل أزيد على أدلته التي تتعلق بموضوع البحث -بدأ «ولكن» بتحليل زواج الاستبضاع والمتعة وزواج المشاركة، واستنتج منها: «أنه مر على العرب الجاهلية ردح من الزمن لم يكن فيه للولد- وذلك إما لشيوع زواج المشاركة بينهم أو لأسباب أخرى نجهلها- أب حقيقي[2] فأدي هذا إلى شيوع نظام الأمومة عند العرب».

ولكن هذا الاستنتاج مبني على اعتقاد أن زواج المشاركة هو وحده الذي كان منتشرًا في الجاهلية، وهذا تحريف في التاريخ؛ لأن (Wailkin) نفسه يعترف بأن أنواعًا أخرى من الزواج كانت سائدة عن العرب الجاهلية، فاستنباطه هذا لا ينطبق على جميع طبقات الأمة العربية التي كانت تسلك مسلكًا غير زواج المشاركة، أما الاستبضاع والمتعة فهما لا يؤديان إلى عدم معرفة الاب، بل المرأة التي كانت تطلب نجابة الولد كانت تعرف أبا المولود، وكذلك المتعة كانت لأجل معين، وهذه المدة مهما كانت قصيرة فإنها تكفي لانتساب الولد إلى زوج أمه الأخير، لأن المرأة

(١) Encyclopedia Britanica Totemism.

(٢) الأمومة عند العرب صفحة ٣٥:

العريقة هي التي كانت تنسب الولد إلى أبيه في مثل هذا الزواج[1] وفضلاً عن ذلك فإن زواج المشاركة نفسه لا يؤدي إلى ما قاله ولكن (Wilikin) لأن الروايات التي دعته إلى أن يستنبط منها زواج المشاركة تقول صراحة: إن انتشار زواج المشاركة أدى إلى انتشار الطريقة الاصطناعية لانساب الولد إلى أبيه، حيث قيل: إن القافة كانت تعين لكل ولد والدا[2]. أما القياس على أن زواج المشاركة أقدم أنواع الزواج كلها فليس لدينا ثبوت تاريخي على ذلك، أما الوأد فلم يكن موجودًا عند أكثر القبائل، ولا يؤدي إلى قلة عدد البنات، بل ولا إلى الزواج الخارجي عند صاحب الأمومة نفسه.

**وقصارى القول:** أن الطوتمية من وجهتها الاجتماعية ليست موجودة في آثار العرب الجاهلية. فلننظر ما إذا كان شأن العرب بإزاء الطوتمية في وجهتها الدينية.

تتلخص مظاهر الطوتمية باعتبارها الديني فيما يلي:

١- القبيلة تتسمى باسم الحيوان.

٢- القبيلة تتخذ حيوانًا أبًا لها وتعتقد أنها سلالة منه.

٣- صاحب الطوتم لا يؤذي طوتمه ولا يأكله إلا إذا عضه الجوع.

٤- يحرم اللمس والنظر إليه ويحرم التلفظ باسم الطوتم.

٥- إذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل أهلها بدفنه وحزنوا عليه.

٦- الطوتم يدافع عن قبيلته في ساحة القتال، وينذر أصحابه الخطر قبل وقوعه بعلامات مثل الطيرة.

٧- عبادة الطوتم.

---

(١) كما يقال: إن أم قضاعة مات عنها مالك بن حمير وهي حامل، فتزوجها معد بن عدنان فولدت له قضاعة على فراشه فتبناه فنسب إليه (صبح الأعشى ج١ ص ٣١٦).

(٢) صحيح البخاري الجزء السادس «باب النكاح».

(١) نعم كانت العرب تتسمى باسم الحيوانات والنباتات، وهاك بعض اسماء القبائل:

بنو أسد، بنو جعدة، بنو ضب، بنو فهد، بنو بدن، بنو جعل، بنو ضبعة، بنو كلب، بنو بكر، بنو حداء، بنو عضل، بنو نعامة، بهتة، حمامة، عنز، نمر، ثعلب، حنش، غراب، وبر، ثور، دُئِل، فهد، هوزن، جحش، دب، قرد، يربوع، جراد، ذئب، قنفذ، ظبيان، عقاب[1]، أوس.

وزد على ذلك قريشًا بمعنى (الحوت)، ولخما بمعنى (الحوت) أيضًا، وحمير جندب، ومن النبات حنظلة والنبوت[2]، ومن أجزاء الأرض فهر وصخر[3]، وفي تعليل هذه الاسماء رأيان: الأول أن هذه الاسماء ألقاب على زعم علماء أنساب العرب، وكانت تطلق على أشخاص تاريخية معروفة انتقلت منهم بالتسلسل إلى خلفهم، ثم أصبح كل منها لقبًا لعشيرة أو قبيلة. مثال ذلك أن بني كلب اتخذوا لقبهم عن شخص تاريخي معلوم وهو كلب بن وبرة بن ثعلبة بن قضاعة[4]. والثاني أن لهذه الاسماء - على زعم بعض المستشرقين- معاني دينية، وأن لها علاقة بعبادة الحيوانات كما هو مشاهد في المذهب الطوتمي.

أما ما يتعلق بالقول الأول فهاك ما قال عنه المستشرق الشهير نولدكه: «وقد حان للعلماء أن يلقوا وراء ظهورهم تلك الآراء الصبيانية التي تحاول أن تقنعنا بنسب الأنساب العربية التي لفقها محمد الكلبي وابنه هشام وغيرهما ليبينوا أن صلة القرابة بين العائلات العربية المعاصرة لهم والقبائل القديمة خالية من كل تلفيق

---

(١) أنساب العرب القدماء (جورجي زيدان).

(٢) صبح الأعشى ج١ ص٣١٢.

(٣) صبح الأعشى ج١ ص ٣٢٤.

(٤) صبح الأعشى ج١ ص٣١٦.

وتزوير، أمن المعقول يا ترى أن تنسب جميع قبائل بني قيس النازلة في أواسط بلاد العرب إلى شخص واحد هو قيس المتوفى، كما يزعمون، قبل ظهور المسيح بمدة قليلة، والذي عندي أنه لا أحد من الشعوب والقبائل العظيمة يعرف حقيقة الشخص الذي ينتسب إليه»[1].

وهذا قول المستشرق الشهير في أنساب العرب، وأما الأستاذ جورجي زيدان فقد قال: «ومع اعتقاداتنا لا ننكر ما يتخلل تلك الروايات من الأمور الموضوعة، إذ لا يتأتى التواطؤ إلى هذا الحد، نعم هنا اختلاف في اسماء الرجال والقبائل، وتلفيق وتزوير في الروايات، ولكن وجود هذا الاختلاف لا يدل على فساد النسب من أساسه، كما أن اختلاف الرواة في تفصيل إحدى الوقائع التاريخية لا يدل على أنها لم تقع»[2].

أما أنا بصفتي باحثًا في أساطير العرب، فإني لا أرى داعيًا لتصديق الأنساب أو تكذيبها، وذلك لسببين، أولاً: أن فكرة الأنساب الموجودة ليست بفكرة بدوية، بل هي مختلطة باليهودية، وكثير منها موجود بالتوراة، ودليل ذلك أن عمر بن الخطاب رضي لله عنه قال: « تعلموا النسب ولا تكونوا كنيط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال: من قرية كذا»[3]. فيظهر من هنا أنه مر على العرب حين من الدهر لم يكن لهم فيه علم بالأنساب، ومما لا ريب فيه أنهم استكثروا التسمية بالحيوان حتى في عصر قبيل الإسلام، فقد روي أنه لما هجر بنو طيء من الجنوب إلى نجد والحجاز نزلوا عند قبيلة تسمى بني أسد[4]، وثانيا: لا يهمنا في بحثنا هذا دلالة هذه

---

(١) الأمومة عند العرب ص٥ - أخذت ترجمته من صاحب الأمومة الذي نقله من:
Zeitschier der Seutrchen "Morgyel"

(٢) أنساب العرب القدماء (جورجي زيدان)

(٣) ابن خلدون ١ المجلد الأول ص١٠٩.

(٤) صبح الأعشى ج١ ص ٣٢٠ ومعجم البلدان «أجا».

الاسماء على أشخاص تاريخية معينة، فيكفينا أنها تطلق على مولود الإنسان لسبب من الأسباب، وكل ما يهمنا أن نعرف السبب في تلك التسمية، فقد اختلف المفسرون في المقصود من تلك التسمية، فقال بعضهم إنها ليست باسماء، بل ألقاب لوحظ في أصحابها التشابه بينهم وبين الحيوان الذي سموا باسمائه، وقال صاحب لسان العرب: إنهم كانوا يسمون الأولاد باسم الحيوان ظنًّا منهم أنه يحفظهم من أعين الإنس والجن، وهذا ما يسمونه بالنقير؛ وقيل لأبي دقيش الأعرابي: لم تسمون أبناءكم بشر الاسماء نحو كلب وذئب، وعبيدكم أحسنها نحو مرزوق ورباح؟ فقال: إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا[1]، كأنهم قصدوا بذلك التفاؤل، فظهر من هنا أن هذه الاسماء لم تكن بألقاب، بل كانت اسماء سمت بها العرب إما مشابهة وإما صيانة من خطفة الجن، فإذا كان الفرض من التسمية المشابهة كما قيل فيكون الشبه بطريق القياس في الصفة أو في الصورة، أما الشبة في الصفة فمعرفته متعذرة وقت الولادة، وإذا كان الفرض من الشبه المشاكلة والمماثلة في الصورة، فليست التسمية إلا جريًا مع عقيدة العرب أن الابن يشبه أبويه أو أخواله، وذلك بسبب الدم المشترك الذي يجري في شريانه، كما قيل إن القافة كانت تعين لكل ولد والدًا معتمدة في ذلك على ظواهر خارجية، ويؤيده ما ورد في الخرافة التي تقول: «في العرب قوم يقال لهم الضبعيون، لو كان في قفل فيه ألف نفس وجاء الضبع لا يقصد أحدا سواه»[2]، وإن كان العرب يريدون بتلك التسمية تفاؤلاً تارة واستعاذة تارة أخرى، فهذا يدل على تقديس الحيوان، وهو أيضًا من مزايا الطوتمية.

وإذا انتقلنا إلى القول الثاني في وجهة تسمية الحيوان نرى أن المستشرقين ذهبوا إلى أن تسمية بعض القبائل باسماء الآلهة التي كانت تعبدها لم يكن بالأمر النادر

---

(١) صبح الأعشى ج١ ص٣١٢.

(٢) حياة الحيوان المجلد الثاني ص٦٥.

عند العرب، فكم من شخص، بل كم من قبيلة عرفت باسم الإله الذي كانت تعبده، مثال ذلك أن بني هلال وبدر وشمس ينتسبون -ولاشك- إلى تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها قبل الإسلام. ومن هذا القبيل بنو غنم ونهم وكلها مأخوذة عن اسماء تلك الآلهة التي كانت تعبدها هذه القبائل، فيستنتج من هذا بطريق القياس أن الحيوانات التي تنسب إليها بعض قبائل العرب كانت في الأصل معبودة عندهم.

(٢) لكن القبيلة الطوتمية قبيل تقديس الطوتم تعتقد أن لها علاقة بأب حيواني، فهل كان للعرب اعتقاد مثل هذا يا ترى؟ كلا، ما وجدنا خرافة صريحة تدل مباشرة على أنه من نسل الحيوان أو النبات، ولكن سنبين الخرافة التي تدل على أن العربي كان يعتقد بعلاقة بينه وبين الحيوان، كما قال الجاحظ: «قلت مرة لعبيد الكلابي وأَظْهَرَ من حب الإبل والشغف بها ما دعاني إلى أن قلت له: أبينها وبينكم قرابة؟ قال: نعم خؤولة، إني والله ما أعنى البخاتي ولكني أعنى العراب التي هي أعرب. قلت له: مسخك الله تعالى بعيرًا، قال : الله لا يمسخ الإنسان على صورة كريم. وإنما يمسخه على صورة لئيم»[1].

نعم، إن مثل هذه الفكرة الشاذة لا تدل على عقيدة سائدة عند أهل البادية جميعًا ويؤكد ذلك قول المسعودي[2]: «وقد زعم كثير من الناس أن الحيوان الناطق ثلاثة أجناس: ناس وبنتاس ونسناس- وقالوا: إن وجوهم على نصف وجوه الناس».

وعن عبد الله بن كثير بن عقير المصري، عن ابنه يعقوب بن الحارث بن لحيم، عن شيبة بن الحارث التميمي قال: «قدمت الشجر فنزلت على رأسها فتذاكرنا النسانس فقلت: صيدوا لنا منها، فلما رجعت إليه إذا بنسناس منها مع بعض أعوانه

---

(١) الحيوان للجاحظ المجلد الرابع ص٥٢ -مطبعة الحميدية.

(٢) المسعودي المجلد الأول.

المهرة، فقال لي النسناس: أنا بالله وبك، فقلت لهم: خلوه فخلوه، فلما حضر الغذاء قال : هل اصطدتم منها شيئا؟ قالوا: نعم، ولكن خلاه ضيفك، قال: استعدوا فإنا خارجون في قنصة أخرى، فلما خرجنا إلى ذلك السرح خرج منها واحد يعدوا، له وجه كوجه الإنسان وشعرات في ذقنه ومثل السرة في صدره، ومثل رجل الإنسان رجلاه، (فهذا الوصف ينطبق على القرد تمام الانطباق)».

وأغلب الظن أن هذه الفكرة بعد امتزاجها بفكرة البلاد المتجاورة ظهرت في شكل شق وسطيح، فأنتسب إليها من العرب بعض الأفراد والقبائل كما قال الألوسي[1]: «وكان الشق بن أنمار بن نزار هذا شق إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة، وكذلك كانوا يعتقدون في سطيح بأنه ابن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا الجمجمة»[2]. ويقال إنه كان وجهه في صدره ولم يكن له رأس ولا عنق وكان في عصره من أشهر الكهان.

بل إذا التفتنا إلى تصور الجن عند العرب، تظهر الفكرة الطوتمية بأجلى مظاهرها. فالجن في العقيدة الجاهلية خلق من بيضة كما قال المسعودي[3]: «وما ذكره أهل التاريخ والمصنفون لكتب البدء كوهب بن منبه وابن إسحاق وغيرهما أن الله عز وجل خلق الجان من نار السموم، وخلق منه زوجته، كما خلق حواء من آدم، وأن الجان غشيها فحملت منه، وأنها باضت إحدى وثلاثين بيضة، وأن بيضة تفلقت من تلك البيضة قطربة وهي أم القطارب، وأن القطربة على صورة الهرة، وأن الأبالس من بيضة أخرى منهم الحارث أبو مرة، وأن مسكنهم الجزائر وأن الغيلان من بيضة أخرى مسكنهم الخرابات والفلوات، وأن السعالي من بيضة أخرى

---

(١) بلوغ الأرب ج٣ ص ٢٧٨.

(٢) بلوغ الأرب ج٣ ص ٢٨١.

(٣) مروج الذهب ص ٣٢٠.

وسكنوا الحمامات والمزابل، وأن الهوام من بيضة أخرى وسكنوا الهواء في صورة الحيات ذوات أجنحة يطيرون هنالك، وأن الحماميص من بيضة أخرى»[1]. فهذه الرواية تدل صراحة على كون الجن من نسل الحيوان. فما الذي يخلق من البيضة ولا يكون من الحيوان يا ترى؟ وكذلك زعْمُ العرب «أنه ليس بهذه الأرض اليوم أحد إلا جن، والإبل الحوشية، وهي عندهم الإبل التي ضربت فيها فحول إبل الجن، فالحوشية من نسل إبل الجن»[2] تشبه عقيدة الأمم الهمجية التي تقول: إن الحيوانات كانت تملأ الأرض قبل وجود الإنسان[3].

وزد على ذلك قول الألوسي: «إنهم يعتقدون في الديك والغراب والحمامة والورل وساق حر والقنفذ والأرنب والظبي واليربوع والنعام والحية اعتقادات عجيبة. فمنهم من يعتقد أن للجن بهذه الحيوانات تعلقاً، ومنهم من يزعم أنها نوع من الجن»[4].

ولا يخفى أن هذه الحيوانات من أشهر اسماء القبائل والأفراد عند العرب كما ذكرنا سالفاً؛ ويؤيده ما ورد في خرافات أخرى لا تكاد تنحصر؛ فقيل: إن السعلاة إذا هي ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر، قال: وربما اصطادها الذئب بالليل فأكلها[5]، ويقال إن تأبط شرًا رأى كبشًا في الصحراء فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول طول الطريق عليه فلما قرب من الحي ثقل عليه فرمى به فإذا هو الغول[6]. وكذلك مقاتلة علقمة بن صفوان بن أمية مع الشق قيل إنه

---

(١) بلوغ الأرب.

(٢) المسعودي ج٢ ص٢٩١.

(٣) وهكذا تكلم العرب في الجن أنهم كانوا في الأرض قبل خلق آدم والخلافة في الأرض (مروج الذهب)

(٤) بلوغ الأرب ج٢ ص٣٦٠.

(٥)بلوغ الأرب ج٢ ص٣٤٩.

(٦)بلوغ الأرب ج٢ ص٣٤٥.

ضرب كل منهما صاحبه فخراً ميتين[1]. وقد بينا بهيمية الشق في خرافة سابقة. وفي أسطورة حرب بن أمية- ومرداس بن أبي عامر الشخصيتان التاريخيتان أنهما أحرقا مغارة ناوين الزرع فيها فطارت الشياطين من تلك المغارة وما هي إلا الحيات البيضاء[2].

ونستطيع أن نقول بعد هذا: إن هيئة الجن في الروايات المذكورة تدل صراحة على كون الجن من الدواب والسباع والهوام. نعم أحيانا نجد الجن على صورة الإنسان، وتارة على شكل غريب الخلق، لكن التصورات من هذا السبيل لم تكن تصورات عربية خالصة، وذلك لأن العقلية العربية كما بينا لم تجرد المادة في بداوتها، لذلك كان تصور الجن كراكب النعامة من أحدث التصورات كما قاله كوك[3] أيضا. وأما القول بأن سليمان عليه السلام رأى الجن على أشكال خارقة للعادات[4] فقد يكون فكرة إسرائيلية كما يظهر من انتسابه إلى سليمان عليه السلام.

وخلاصة القول: أن الجن والغول والسعلاة كانت من الحيوان في صميم الفكرة العربية. ولذلك نرى الباحثين عن معنى الجن عند العرب أدخلوه في نوع الحيوان متأثرين بفكرة البادية وقالوا: «إن الغول حيوان شاذ»[5].

«وإذا نظرنا إلى أصل نشوء الجن عند العرب نشعر أن مساكن الجن تشبه مساكن السباع التي كانت العرب تخاف منها، فكل شيء مخيف أو صوت غريب

---

(١) مروج الذهب ص٣٢٥.

(٢) الأغاني ج٦ ص٢٤١.

(٣) Notes on the Religion of the semites "Smith By C··k.

(٤) عجائب المخلوقات قزويني.

(٥) عجائب المخلوقات ٢٠٢

كان متعلقاً بالجن في بادية العرب، فهذه الفكرة إما أن تكون قد بدأت في بادية العرب نفسها، وإما أن تكون قد جُلبت من الخارج؛ فإن كانت مجلوبة[1] فليس لنا أن نبحث فيها بل نتركها لفرصة أخرى، أما إذا كان منشؤها في البادية نفسها، فأغلب الظن أن تكون بذور تلك الفكرة هي أن العربي كان يخاف بعض الخرافات والفلوات، ويستوحش من سماع الصدى فيما بين الجبال، كما قيل: « إن الأعراب وأشباه الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف بل يتعجبون من رد ذلك[2]». وكذلك كان العربي يخاف من السباع ويظن فيه روحاً شريراً ويظهر هذا فيما يقال من أنه إذا نزل العربي في واد مخيف كان يعوذ بعظيم هذا الوادي، وقال شاعر استعاذ ومعه ولده فأكله الأسد:

قد استعذنا بعظيم الوادي من شر ما فيه من الأعادي

فلم يجرنا من هزبر عادي[3]

ولم يكن عظيم الوادي هذا في بادئ الأمر إلا صنفاً من السباع، وقد قيل: خرجنا في سفرة ومعنا رجل فانتهينا إلى واد فدعونا بالغداء فمد الرجل يده إلى الطعام فلم يقدر عليه، وهو قبل ذلك يأكل معنا في كل منزل، فخرجنا نسأل عن حاله، فلقينا رجلاً طويلاً أحول مضطرب الخلق في زي الأعراب، فقال لنا: ما لكم: فأنكرنا سؤاله لنا، فأخبرناه خبر الرجل، فقال: ما اسم صاحبكم؟ فقلنا: أسد، فقال: هذا واد قد أخذت سباعه فارحلوا، لو قد جاوزتم الوادي استمر صاحبك وأكل[4].

(١) وهو المحتمل.

(٢) كتاب الأصنام للكلبي.

(٣) بلوغ الأرب ج٢ ص٣٢٦.

(٤) أغاني المجلد الثالث ص٣٧- طبعة دار الكتب المصرية.

ثم تطورت الفكرة إلى أن النفس التي كانت طيرًا في تصور العربي القديم أصبحت جنًا من الجن الخيالية وصارت من شياطين الشعراء فيما بعد.

ومع أن فكرة الجن تطورت عند العرب إلى حد بعيد، فقد بقي في تصور الجن جزء من الحيوانية، فإذا تحولت السعلاة في صورة المرأة مثلاً فقد تكون رجلاها رجلي حمار أو عنز أو على الأقل كما قال الشاعر:

يا رجل عنزا انهقي نهيقا لن تنزلي السبيل والطريقا[1]

وكان العربي يرى في الجن أو في الحيوان كل ما يراه المتوحش في طوتمه: فكان ينسب الأفراد والقبائل إلى نسل الجن، كما قيل كانت بلقيس ملكة سبأ وذو القرنين [2] ملك الأرض من ولد الجن، وكذلك كانت قبيلة بني مالك وبني شيصبان وبني يربوع من قبائل الجن، ومع كل هذه المماثلة بين الجن والحيوان وطوتم المتوحش فإنا نرى صفات الجن تختلف عن صفات الحيوان في بعض الأساطير القديمة، كما قيل: إن عمرو بن يربوع تزوج الغول وأولدها بنين ومكثت عنده دهرًا، فكانت تقول له: إذا لاح البرق من جهة بلادي وهي جهة كذا فاستره عني، فإني إن لم تستره عنى تركت ولدك عليك وطرت إلى بلادي قومي، فكان عمر بن يربوع كلما برق البرق غطى وجهها بردائه فلا تبصره[3]. فانظر إلى تصور الجن هنا مع كونه إنسانًا ذا لحم وعظم ضخم يطير في الهواء ويسكن في ناحية يلوح فيها البرق، ولا أخال في هذه الأسطورة شبه تأثر خارجي، لأن مضمونها يشير إلى قدمها وبداوتها.

---

(١) مروج الذهب ص٢١٥.

(٢) بلوغ الأرب ج٢ ص٣٢٩.

(٣) بلوغ الأرب ج٢ ص٢٤٠.

ومع اعترافي بكون هذه الخرافة عربية أرى فيها تطور في تصور العربي. فلا أغالي إذا قلت: إن تصور الجن لم يبق على حيوانيته القديمة في جميع تطوراته من عصر البدواة إلى عصر الإسلام. ولكن هذا لا يمنع من كون الجن حيوانًا في تصور العربي القديم كما ذكرنا آنفًا، ولست أول من يقول بهذا، بل سبقني إلى هذا الاستنباط «اسمث»[1] الذي لا يشك في طوتمية الجن، لكني مع اعتقادي بكون الجن حيوانًا في تصور العرب القدماء، لا أوافقه على كون الجن طوتمًا عند العرب، وذلك لأن الطوتم كان من أصحاب المتوحشين، وكان للطوتم أتباع يحمونه ويحميهم، أما الجن منذ نشأتها فهو شيء مخيف ومنفر للناس، وقد استعاذت العرب من الجن، ولم يرجو الخير منه، لا كما يفعل أهل الطوتم الذين كانو يلجئون إليه في الساعة الحرجة، فكان الجن يمثل قوة الشر، وكان أشجع شبان العرب، مثل تأبط شرا وعلقمة بن صفوان يقاتلونه، وكانوا يفتنون نشيد الشجاعة إذا تغلبوا عليه، ومن هذا نقول: إن الجن كان من أعداء القبيلة لا من آبائها، وفضلاً عن ذلك فإن الجن كانت تمثل الحيوان في المخيلة العربية، لكن العربي كان يفرق بين الجن والحيوان في عالم المشاهدة، إذ لم يكن كل صنف من الحيوان جنًا في تصوره، وزد على ذلك أن السباع لم تكن وحدها من الجان بل كانت الإبل أيضًا من الجن، ولو أنها ليست من الحيوانات المخيفة، وكذلك نوعية الجن لم تكن محصورة في الحيوانية، بل كل شيء مخيف أو صوت غريب أو بناء عظيم[2] يستلفت الأنظار كان متعلقًا بالجن.

كل هذا يهدينا إلى أن الجن لم تكن طوتمًا عند العرب بل الحيوان المقدس تطور واختلط تقديسه بالجن التي عرفها العربي بعد اتصاله بالبلاد المجاورة. ويؤكد

---

(١) the Religion of the simites

(٢) انظر الإكليل.

هذا ما قيل: إن كلمة جن ليست عربية بل أصلها (Aggen)[1] أي المجير أو الحافظ أو الحامي، وقد وجدت الكلمة في بعلبك (Heliopolis) مع اسم الأسد(Lion- ginnaios) فأصبحت هي كلمة الجن المعروفة عند العرب[2].

**وقصارى القول:** أن الجن لم تكن طوتماً عند العرب، وإنما الحيوان هو الذي قد تمتع بميزات مثل الميزات الطوتمية، فكان العربي يلاحظ في تقديس الحيوان كل ما يراعيه أهل الطوتم بإزاء طوتمه.

(٣) صاحب الطوتم لا يؤذي طوتمه ولا يأكله إلا إذا عضه الجوع.

إن العربي كان يجتنب قتل الحيوان ظنًّا منه أنه لو قتله لجوزي به كما قال الألوسي[3].

«إنهم كانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن تأخذ بثأره، فيأخذون روثه ويفتونها على رأسها ويقولون «روثه راث ثائرك». وإذا طالت علة الواحد منهم ظنوا به مسًّا من الجن. وإذا قتل حية أو يربوعًا أو قنفذًا صنعوا جمالاً من طين وجعلوا عليها جوالق وملئوها حنطة وشعيرًا أو تمرًا، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة الغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال، فإذا رأوا أنها بحالها قالوا: لم تقبل الدية فزادوا فيها، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض، وفرحوا وضربوا بالدف، وإذا كان الشيء المقدس من النبات حرموا إحراق عيدانه كما ورد في قصة

---

Religion of Palestine. P. ٢٢٠ Foot –note. (١)

(٢) بلوغ الأرب د٢ ص٣٥٨و ٣٥٩.

(٣) بلوغ الأرب.

مرداس[1]. ولا يظن ظان أن العربي لم يحرم الأكل من أي حيوان مع أنه من أهم مقومات الطوتمية، إذ الحقيقة أن العرب مع أنهم اضطروا بطبيعة البلاد أن لا يحرموا شيئًا من الأكل لكنهم قد حرموا أكل اللحم في بعض المواسم كما قال البلخي: « وكانت الحمس (من قريش) لا يسمنون السمن ولا يأقطون ولا يأكلون اللحم أيام الموسم»[2] وفي بلاد قحط وفاقة كبلاد العرب لا يستطيع الإنسان أن يمنع عن الأكل ولو كان من المحرمات، فليس يستغرب ما قيل من أن بني حنيفة عبدوا إلهًا من حيس ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه، فقال بعضهم:

أكلت حنيفة ربها ... زمن التقحم والمجاعه

لم يحذروا من ربهم ... سوء العواقب والتباعه[3]

وزد على ذلك الوصيلة والسائبة التي كانت تسيب للأصنام فتعطى للسدنة ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل، وقيل: تترك لآلهتهم:

(٤) يحرم اللمس والنظر إلى الطوتم كما يحرم التلفظ باسمه.

كان العرب يحرمون التلفظ باسم الطوتم، ويظهر هذا في أنهم كانوا يكنون عن المنهوش أو الملدوغ بالسليم، ويسمون النعامة بالطلع والمجلم، كما كانوا يلقبون الأسد بأبي الحارث والثعلب بابن آوى، والضبع[4] بأم عامر، وسموا الغراب بحاتم[5]، لكن ليس لدينا أدلة بينة صريحة على ذلك الأمر.

---

(١) أغاني ج٦ ص ٣٤١.

(٢) البدء والتاريخ الجزء، الرابع الفصل الثاني عشر ص٣٢.

(٣) البدء والتاريخ للبلخي، الجزء الرابع الفصل الثاني عشر ص٣٢.

(٤) تبريزي شرح الحماسة ص ١٩٣.

(٥) الحيوان للجاحظ ج٣ ص١٣٦.

(٥) إذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل أهلها بدفنه وحزنوا عليه:

كان العربي يدفن الحيوان مثلما يدفن الإنسان ويحزن عليه حزنه على أخيه، يؤيد هذا ما روي من أن بني الحارث كانوا إذا وجدوا غزالاً ميتًا يغطونه ويكفنونه ويدفنونه، وكانت القبيلة تحزن عليه إلى ستة أيام [1]. وروى السهيلي في فضائل عمر بن العزيز: «بينما عمر بن عبد العزيز يمشي في أرض فلاة فإذا حية ميتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها». وقال أيضًا: إنه كان في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يمشون فرفع لهم إعصار، ثم جاء إعصار أعظم منه ثم انقشع فإذا حية قتيل، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقه، وكفن الحية ببعضه ودفنها [2]. وقال كوك (Cook): إن القول بأن الحية كانت من الجان المسلمين هو تفسير حديث وضعه الرواة لإثبات وهم قديم[3].

(٦) الطوتم يدافع عن قبيلته في ساحة القتال، وينذر أصحابه بالخَطر قبل وقوعه بعلامة مثل الطيرة.

كان الحيوان يحمي العرب كما كان الطوتم يحمي أهله، فقد قيل: «خرج عبيد بن الأبرص يريد الشام، فلما كان ببعض الطريق عرض له شجاع يلهث عطشًا، فعمد عبيد إلى رابية ونزل عن بعيره وسقى الشجاع حتى روي، ثم مضى حتى أتى الشام وقضى حاجته وانصرف، فإذا في بعض الليالي ضل بعيره، ونكب عن الطريق، وساء ظنه، فرأى بعيرًا فاستوى على ظهره فلم يلبث أن رأى[4] باب داره، وكان على مسيرة عشرين مرحلة». وحكى بعض الرواة أنه نزل واديًا بغنمه، فسلب

---

(١) Totemis & Exagomy p. ١٥

(٢) الروض الأنف المجلد الأول ص ١٣٦ – طبعة الجمالية بمصر.

(٣) Religion of semites By smith P. ٤٤٤ Foot- note.

(٤) عجائب المخلوقات للقزويني ص٢١٢.

ذئب شاة من غنمه، فجاء الذئب بالشاة وتركها، ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، بل تذكر أسطورة متأخرة أن العربي رأى الإله «يغوث» يدافع عن قبيلته في ساحة القتال كما قال الشاعر:

وسار بنا يغوث إلى مراد فناجزناهم قبل الصباح[1]

كذلك نجد العربي يتفاءل بالطير وبنباح الكلاب على مجيء الضيوف، ويتشاءم من الثور الأعضب (وهو مكسور القرن) ومن الغراب، كما قيل: أشأم من غراب البين. ولم يكن الفأل والطيرة علامات مرجمة، بل يرى كوك أن الحيوان المتفاءل به كان يعلم ما كان يشير إليه وقد قال قيس بن ذريح[2].

ألا يا غراب البين ويحك نبّني بعلمك في لبنى وأنت خبير

## (٧) عبادة الطوتم

تطورت الطوتمية عند بعض الأمم مثل المصريين القدماء إلى عبادة حيوان الطوتم، وسنرى: هل عبد العرب الحيوان كعبادة المتوحش الطوتم؟

نقل الدميري[3] عن الاستيعاب للحافظ أبي عمر بن عبد البر «أن العرب كانوا يأتون بالشاة البيضاء فيعبدونها، فيجيء بالذئب فيأخذها، فيأخذون أخرى مكانها». وذكر السهيلي في قدوم وفد طيء على رسول الله ﷺ قال: خرج نفر من طيء يريدون النبي ﷺ بالمدينة وفودا ومعهم زيد الخيل و...... فعقلوا رواحلهم بفناء المسجد ودخلوا، فجلسوا قريبًا من النبي ﷺ حيث يسمعون صوته، فلما نظر النبي ﷺ

(١) كتاب الأصنام.
(٢)الأغاني المجلد الثاني ص ٨٩ و٩١.
(٣) حياة الحيوان للدميري المجلد الثاني ص٣٥.

اليهم قال: إني خير لكم من العزى [1] ولاتها، ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله» وما حازت مناع (الجبل) من كل ضار غير نقاع، ومن أمثال ذلك ما كان من عمرو بن حبيب الموصوف بذي الكيود (أي كثير الكيد)، فإنه أغار على بني بكر فأصاب سقبًا كانوا يعبدونه من دون الله، فأراد إغاظتهم فنحره وأكله[2]، وفي ذلك يقول أحمد البدوي الشنجيطي عند ذكر محارب وأبو عقبيلة:

وانسب خبريهم ذو الكيود آكل سقب بكر المعبود

ومن هذا القبيل ما قال ابن إسحاق: «وكان رئام بيتًا لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون منه، إذ كانوا على شركهم، فقال الحبران للتبع: إنما هو شيطان يفتيهم بذلك فخل بيننا وبينه، قال: فشأنكما به، فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن كلبًا أسود فذبحاه، ثم هدما ذلك البيت»[3].

ولم يقتصر الأمر على بيت الرئام، بل وجدت بيوت كثيرة على اسماء الحيوان في شبه الجزيرة، من ذلك[4] دارة الذئب بنجد في ديار بني كلاب، ودارة الذئب لبني الأضبط، ودارة الغزيل[5] لبني حارث بن ربيعة بن أبي بكر بن كلاب، ودارة الكبشات للضباب، وبني جعفر، وكذلك دارة الجدي، ودارة الخنزير، ودارة العجلة[6]، قيل: هي أول دار بنتها قريش بمكة قبل دار الندوة.

هذه الروايات تهدينا إلى أن العربي عبد الحيوان الحي نفسه، ولم ينحت

---

(1) الروض الأنف المجلد الثاني ص٣٤٢ للسهيلي.
(2) أديان العرب للجارم ص ١٢٤.
(3) سيرة ابن هشام في حديث غزوة تبع إلى يثرب ص٢٨.
(4) معجم البلدان المجلد الرابع ص١٨.
(5) معجم البلدان المجلد الرابع.
(6) معجم البلدان المجلد الرابع ص١٠.

الأصنام على صورة الحيوان، لأنه كان جاهلاً بصناعة الرسم والنحت، نعم لقد وجدت الأصنام على صورة الحيوان في شبه الجزيرة، ولكن معظمها بل كلها كان مجلوبًا من البلاد المجاورة، والأصنام التي وجدت على صورة الحيوان ثلاثة:

(١) النسر، وكان على صورة النسر[١] فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع، تعبده حمير ومن والاها، فلم يزالوا يعبدونه حتى هوَّدهم ذو نواس[٢].

(٢) ويغوث، وكان على هيئة الأسد[٣] وكان بأكمة في اليمن يقال لها مذحج، تعبده مذحج ومن والاها[٤].

(٣) ويعوق، وكان على صورة الفرس[٥]، فكان بقرية يقال لها خيوان تعبده همدان ومن والاها من أرض اليمن[٦].

أما الكلبي فلم يذكر هيئة هذه الأصنام، بل قال: «كان ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر قومًا صالحين»[٧] واكتفى بقوله في «سواع»: ولم اسمع لهذيل في أشعارها له ذكرا[٨]. وقال في «يعوق»: ولم اسمع همدان سمت به ولا غيرها من العرب[٩]. وقال في «نسر»: ولم اسمع حمير سمت به أحدا[١٠] فظهر من هذه الرواية أن

---

(١) Kinship& Marriage
(٢) كتاب الأصنام ص٥٨.
(٣) Kinship& Marriage
(٤) كتاب الأصنام ص٥٧.
(٥) كتاب الأصنام ص٥٧.
(٦) Kinship& Marriage
(٧) كتاب الأصنام ص٥١.
(٨) ص١
(٩) ص١٠
(١٠) ص١١

الأصنام هذه لم تعبد في الحجاز ونجد، فلا غرو إذا لم يجد الكلبي أثرهم في اسماء العرب ولا في أشعارهم.

أما جورجي زيدان فقال: إن «يغوث» مجلوب من مصر، وعلل ذلك بقوله: وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنمًا على صور أسد أو لبوة يسمونه «تفنوت»، ولا يخفى ما بين هذا اللفظ واللفظ «يغوث» من المشاكلة الصورية إذا اعتبرنا أن العرب كانوا يكتبون بلا نقط[1]. فكان الصنم «يغوث» مجلوبًا من الخارج، وعبده العرب، كما يظهر من اسماء مثل عبد الأسد، وعبد يغوث ونحو ذلك. فانتشرت عبادة الإله الأسد في نجران وفي شمال اليمن، ودانت قبيلة مذحج وبطنها وأفخاذها بدين الإله الأسد في مدينة جرش، على وادي بيشه في شمال اليمن، ويؤيده ما ورد في قصة حرب الرزم التي نشبت بين همدان ومراد للحصول على ذلك الصنم.

وخلاصة القول: أن «يغوث» لم يكن مجلوبًا فحسب، بل لم يعبد في الحجاز ونجد، وهما البلدان اللذان حصرنا بحثنا فيهما. زد على ذلك أن «يعبوب» صنم لجديلة طيء، وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد فعبدوا «يعبوب» بعده، وزاد زكي باشا على ذلك قوله: ربما كان هذا الصنم على هيئة الفرس[2]وذكر «سمث» صنمًا حيوانيًا جديدًا عند العرب وهو اليربوع فقال وهو يستنبط من قصة التوراة التي تقول بتقهقر سنحاريب، ومن الأساطير التي تقول إن الفأر أهلك عساكر السوريين.

وأغلب الظن أن عبادة «أبولو» (Appolo) من حيث هو الذي يبعث الوباء (Scminthens) تدل على أنها سامية الأصل[3]، ولكن الأصنام الحيوانية مثل يعوق ونسر ونحوهما لم تترك أثرًا في حياة العرب البادية، وقصارى القول: أن العربي رأى

---

(١) أنساب العرب القدماء

(٢)كتاب الأصنام ص١٢

Kindhip& Marriage - Foot note ٢٣٦. (٣)

في الحيوان كل ما اعتقد المتوحشون في طوتمهم، إلا أن صاحب الطوتم يقدس طوتمه المخصوص ويتجنب أذى الطوتم الذي ينتسب إليه، أما العرب فلا نعرف حيوانًا مخصوصًا لقبيلة ما بعينها، حتى نقول إن قبيلة الذئب مثلاً كانت تحترم الذئب، أو قبيلة النمر كانت تجتنب قتل النمر، وكذلك لم تكن الجن طوتمًا ولا أبًا لقبيلة العرب، لأن العربي لم يتمنَّ الخير من الجن، بل خاف منها وذهب بعيدًا عنها.

كانت العرب تقدس الحيوان وتعبده كما يقدسه ويعبده أهل الطوتم، لكن غرضهم في تقديس الحيوان وعبادته يختلف عما يقصد أهل الطوتم، إذ كان أهل الطوتم يرمون بعبادة الحيوان إلى إجلال الآباء وإكرامهم، فكانوا مدينين للطوتم بحياتهم ومماتهم، لكن العرب لم تعتقد أن حياتها هبة من هبات إله حيواني، ولا رأوا صلة رحم بينهم وبين الحيوان الطوتمي كما هي عقيدة المتوحشين، بل كان العربي يقدس الحيوان ويعبده لتحصل له البركة، وشكرًا لاستفادته منه على مجرى عادة الرعاة جميعًا، أما الأصنام مثل «يغوث»، و«يعوق»، و«نسر» و«يعبوب» و«يربوع»، فقد بينا أنها لم تعبد في بادية الحجاز بل ما وجد أثر لها في حياة العرب الاجتماعية، إن هي إلا أسماء سموها:

فهذا البحث يهدينا إلى أن العرب لم تتمتع بجميع الميزات الطوتمية، ومما لا نستطيع جحوده أنه اعتقد في الحيوان عقيدة تشبه الطوتمية، فإذا كان لا مناص من مرور التفكير البشري بتطورات مثل الحيوي والطوتمي كما قرره العلماء، فلا يبعد أن تكون هذه الطوتمية عند العرب مثل الطوتمية التي وجدت عند قبيلة أرنتا (Arumta) في وسط أستراليا، وهي عبارة عن تقديس الحيوان وعبادته دون أن تكون وراثية ومبنية على الزواج الخارجي والأمومة، أو بعبارة أخرى: إن الطوتمية من الوجهة الاجتماعية لم توجد عند العرب القدماء، ومما لا نتردد فيه أن الطوتمية من

وجهتها الدينية كانت منتشرة في القبائل العربية. ولا يظن ظان أن الطوتمية الدينية والاجتماعية متلازمتان، ذلك لأنها منذ نشأتها كانت -على رأي فريزر- دينية بحتة، ثم تفرعت. وقد وجدت بعض القبائل الطوتمية وليس لها حظ من الوجهة الاجتماعية كقبيلة أرنتا.

# الباب الرابع

# آلهة العرب

# الفصل الأول

## نظرية بدء الوثنية في الرواية والدراية

إن عقلية الأمة تنضج وتبلغ رشدها من التجارب التي تكسبها في تنازع البقاء، فقد رأينا أن التفكير يتدرج من المذهب الحيوي إلى المذهب الطوتمي، أما المذهب الفيتشي والمذهب الطوتمي فما هما إلا مذهب واحد في هيئتين مختلفتين، وإذا أمعنا النظر فيهما رأينا أنهما في الحقيقة فرعًا المذهب الحيوي، وذلك لأن الإنسان الأول في المذهب الحيوي يتوهم حياة في كل شيء، وفي المذهب الطوتمي يحصر الحياة في أشياء محدودة، فلذلك تنقسم العقيدة الدينية إلى مذهبين: الأول هو المذهب الحيوي، والثاني هو مذهب تعدد الآلهة (Polytheoism) ويختلف الأول عن الثاني بأنه يرى في الجمادات والحيوانات شخصية خاصة بها، ولكن الثاني يمثل الطبيعة في صورة الإنسان.

أما ما يتعلق بتوزيع قوى الطبيعة بين الآلهة، وبإقامة الدولة الإلهية، مثل دولة زيوس في أولمبس عند اليونان فهو أرفع شأنًا وأعلى منزلة في تطور الآلهة، وهو لا يحصل إلا بعد تقدم الحضارة تقدمًا عظيمًا ولا تنتقل المعيشة من حالة القنص والرحلة إلا حالة الزراعة والإقامة إلا بالتدريج، لذلك فإن الآلهة التي كانت لها سلطة في حالة البداوة لا تفنى في دور الانتقال فناء تامًا، بل أكثرها يستمر إلى أن يبلغ مذهب تعدد الآلهة قمة مجده.

قلنا إن عقلية الإنسان لن تفرق بينه وبين الموجودات في طور المذهب الحيوي، أما في حالة المذهب الطوتمي فإن عقليته تقدمت وفرقت بني الجماد والحيوان، ثم ارتقت فكرته بعد ذلك وفهم أنه يمتاز بالنطق وجوهر العقل، وأنه يستطيع أن يعمل ما لا يستطيع الحيوان عمله، فلما عرف شرفه هذا وفضيلته على غيره، رد الآلهة الطوتمية

إلى أشكالها الحقيقية وأقام الأصنام على خلقته، ولو أنه أبقى في هذه الأصنام جزءاً من الحيوانية السابقة ليكون رمزا يدل على أنه حيوان في الحقيقة.

ولكن أعظم الأصنام في هذا الطور اتخذت شكل الإنسان وصورته، وما أحسن ما قال الفيلسوف إكزيتوفان ·(Exenophan) ساخرا[1]:......... «يتخيل الإنسان أن الإله يولد مثل الإنسان وله هيئة وصوت وجسد مثله... وكذلك لو استطاع الثور والأسد والحصان أن تنحت الآلهة لرسمتها على شاكلتها ولجعلت أجسادها مثل أجسادها»، لكن المسألة التي تختلج في صدر الباحث لا تتعلق بصورة الصنم بل بغاية الإنسان من إقامة الصنم، والداعي الذي حمله على عبادة الأوثان في مبدأ الأمر، قال يوهيمروس (Eyhemerus): كانت الآلهة من أبناء آدم، لكن مرور الزمان و الآجيال كبر همتهم ورفع شأنهم إلى درجة الآلهة، وهذا ما ذهب إليه سيفج (Savage)[2] حيث قال : إن أول مظهر للدين «عبادة القبيلة الرب والأمير» Ancestor worship os The root of every relogion. وهكذا قال سبنسر: «إن عبادة السلف أساس الأديان جميعًا».

وهذه هي العقيدة التي نجدها سائدة في الأمة العربية كما قيل: «كان بنو شيث يأتون جسد آدم في المغارة فيعظمونه ويترحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل بن آدم: يا بني قابيل، إن لبني شيث دوارًا يدورون حوله ويعظمونه، وليس لكم شيء، فنحت لهم صنمًا فكان أول من عملها[3]».

وكذلك يقال كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قومًا صالحين ماتوا في شهر، فجزع عليهم أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم، هل لكم أن أعمل لكم

(١) B.٤- Introduction to Mythogoy by " Lwis soense".

(٢) B. ١٥ Belieg on God.

(٣) كتاب الأصنام ص٥١.

خمسة أصنام على صورهم، غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحًا؟ قالوا نعم؛ فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ولقّبها لهم، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله، حتى ذهب القرن الأول وعملت على عهد بروي بن مهلابل بن قيشان بن أنوش بن شيث بن آدم؛ ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول،ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا: ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله[1] فعبدوهم. وقيل أيضًا: غنم سليمان عليه السلام بنتًا لملك وكان لا يذهب حزنها و لاتزال تبكي، فأمر سليمان الشياطين إجابة لطلبها أن يصوروا صورة أبيها لتسليتها، فعملوا لها مثل صورته، وألبسوها ثيابًا مثل ثياب أبيها، فكانت إذا خرج سليمان من دارها تسجد لها[2].

ولكن هذه النظرية لا تتفق مع عقلية العرب وتقاليدهم، لأن العرب لم يرفعوا سدنة البيت إلى درجة الآلهة، ولم يقدسوا آباءهم وأمراءهم -هاك سدنة البيت على رواية ابن هشام لما توفى اسماعيل بن إبراهيم ولى البيت بعده[3].

١- ثابت بن اسماعيل.
٢- مضاد بن عمرو الجرهمي.
٣- عمرو بن حارث الغساني.
٤- حليل بن حبشه.
٥- غوث بن مر بن أد.
٦- قصي بن كلاب.
٧- عبد الدار.

(١) كتاب الأصنام ص٥٢.
(٢) تاريخ ابن الأثير، المجلد الأول ص٩٢.
(٣) سيرة ابن هشام في ذكر ولاية الكعبة.

٨- هاشم بن عبد مناف.

٩- المطلب بن عبد مناف.

١٠- عبد المطلب بن هاشم.

١١- عباس بن عبد المطلب.

ولم يعبد سادن من هذه السدنة ولا من سدنة أصنام أخرى مثل بني لحيان (سدنة سواع)، وبني ثقيف ( سدنة اللات)، وبني شيبان (سدنة العزى)[1].

نعم قد عُظمت الأموات وقُدست في بلاد متعددة، ولكن لم يكن الإله من جنس الإنسان دائما، ولا كل ميت تقدس وتحول إلى صورة الإله، وإذا كان الأمر غير ذلك فكيف تعتبر عبادة بني إسرائيل للعجل، وعبادة العرب للجمل والكلب الأسود والشاة والحية والجن؟ ليست هذه إلا وليدة الاستفادة واللذة والخوف، ولذلك ذهب الناس في تعليل إقامة الأصنام مذاهب شتى؛ وقالوا: إن هناك علاقة بين آلهة الرعد والبرق والأحجار القادحة لما يزعمونه من أصلها السماوي، وإن كانت أحجارًا بركانية أو ما يشبهها، والواقع أنه كان للنار أثر كبير في الحياة الاجتماعية عند المتوحشين جميعًا، وكذلك كانت عند العرب، ومن نيرانهم: نار التحالف، ونار القرى، ونار المزدلفة، ونار الاستسقاء، ونار الزائر، ونار الغدر، ونار السلامة، ونار الحرب، ونار الصيد، ونار الأسد، ونار السليم، ونار الفداء، ونار الوشم، ولقد كانوا يقولون للرجل: ما نارك؟[2] وكان العربي يستغرب من وجود النار في الشجر، ولذلك تقول العرب: «في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار»، لأنهما أسرع اقتداحًا، فقال سبحانه وتعالى ينبههم على ما كانوا يعنون به: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ [الواقعة:٧١، ٧٢]، ولم يقتصر

---

(١) كتاب الأصنام.

(٢) نهاية الأرب للنويري.

الأمر على ذلك الحد بل نسجوا أسطورة حول النار وقالوا[1]: «لما قتل قابيل أخاه هابيل وهرب من أبيه آدم إلى اليمن جاءه إبليس وقال له: إنما قبل قربان هابيل وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها، فانصب أنت أيضًا نارًا تكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار».

وعبادتهم النار أن يحفروا أخدودًا مربعًا في الأرض ويحشوها ويملئوها وقودا ثم لا يدعون طعامًا ولا شرابًا ولا عطرًا ولا جوهرًا إلا طرحوه فيها تقربًا إليها، وحرموا إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها[2].

وإذا كان العربي يرى نارًا في الأشجار الخضراء، وفي بطون الأحجار والجبال، فليس ببعيد أن يعتبر النار شيئًا قدسيًا، وطبيعي أن يرى في الحجر شيئًا من السحر حينما يرى النار تحرق الأشياء إلا الحجر، وطبيعي كذلك أن يفضل الحجر على النار ويعظمه ويقدسه.

لكن النار وحدها لم تكن هي الضرورة الوحيدة في المعيشة، وقد قلنا: إن الإنسان بدأ حياته من تجارب بسيطة على قدر ضروريات محدودة، وهذه الضروريات تنحصر بادئ الأمر في البحث عن قوت يمسك رمقه، ثم تتسع وتكثر، وأهم احتياجات المعيشة البسيطة والبدائية أكل بسيط وشرب ومسكن يقيه البرد القارس وحرارة الشمس المحرقة، وغريزة الإنسان تميل إلى قضاء تلك الحاجيات وهي بدورها تحمل الإنسان على عبادة الشيء الذي استفاد منه كما قال بروديكيوس(Prodicus)[3]، وفي أول الأمر ظهرت أصنام القوى الطبيعية التي استفاد منها الإنسان مثل النيل في مصر، ثم أقيمت تماثيل للناس الذين خدموا الإنسان.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ج١ ص٨٢.

(٢) نهاية الأرب ص١٠٥

(٣) Inroduction to Mythology P. ٤٢.

وقصارى القول: إنما نشأ الإنسان الأول يعبد الشمس والقمر والنجوم والمطر والنور وغيرها من آلهة الخير، والرعد والبرق والنار والظلام وغيرها من آلهة الشر، وقدم القرابين والذبائح استدرارًا لخير الأولى واتقاء لغضب الثانية. فكان الدين على هذا الرأي وليد اللذة كما كان وليد الألم والخوف (child of fear)، لذلك كان ينبغي للعربي الذي يراقب الطبيعة ويرحل في انتجاع أودية خصبة أن يكرم الآبار، ويجل الرطب واللبن والعسل، ويعبد الأشياء التي كانت مصدر هذه النعم كلها؛ لكن المؤرخين لم يذكروا شيئًا من هذا القبيل في كلامهم عن المذاهب الجاهلية، بل اختلف الرواة في بدء الوثنية عند العرب، ولم يبقَ قول يتفق عليه حتى نثق به، فقد قال البعض: إنها بدأت بعد وفاة آدم عليه السلام كما ذكرنا سالفًا، وذهب البعض إلى أن أبا كبشة نشر عبادة النجوم عند العرب، وأجمع كثير من الرواة على أن عمرو بن لحي نصب الأصنام حول الكعبة، وإذا رجعنا إلى ما ورد في التنزيل نرى أن الأصنام قد عبدت في عصر نوح أيضًا، وهذا العصر أقدم من عصر عمرو بن لحي، فهذه الروايات العربية يبدو أنها تناقض بعضها بعضًا، ولكنه يتجلى لنا أن الاختلاف في بدء الوثنية ليس تناقضًا، وإنما هو إلى النوعية التي استمرت فيها الوثنية في عصور شتى. وهذه العصور تبدأ وفق روايات العرب من وفاة آدم، حينما أخذ بنو شيث يعبدون أباهم آدم؛ واستمرت هذه العبادة إلى عصر يزد بن مهدائيل، كما قيل: إنه في عصره عملت الأصنام: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر؛ وبعث إدريس إليهم للهداية فدعاهم إلى التوحيد، لكنهم لم يستجيبوا له، فرفعه الله إليه، واستمر القوم في عبادة الأصنام إلى عصر نوح، فتلاشت الأمة في الطوفان، ثم انتشر النسل من أولاد سام في بلاد العرب، ومنهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعمالقة، ويقال لهذه القبائل «القبائل البائدة» لما أصابها من العذاب السماوي الذي أهلكهم، إلا من آمن منهم، وما آمن إلا قليل، وقد كانوا أصحاب أوثان، وكان

من أصنامهم صمود وصداء والحصباء[1]، على رواية المسعودي، فعبدوها من دون الله، ونسوا ما أنعم الله به عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وبوأهم أرضًا تدر عليهم الخير، فبعث الله إليهم هودا، فدعاهم إلى عبادة الله، فأبوا وكذبوا و ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:٥٣] فأمسك الله عنهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، فهلكت عاد بكفرهم وطغيانهم، ثم خلف من بعدهم ثمود وكانوا خاضعين لعاد وهي في أوج عظمتها، فلما أبيدت عاد ظهرت ثمود وكانت مثل عاد تدين بالوثنية، فأرسل الله إليهم صالحًا واعظًا ومذكرًا، ودعاهم إلى عبادة الله، فأمن له المستضعفون من قومه، وكفر الملأ منهم ولم يؤمنوا له، وطلبوا آية على صدقه، فأتاهم بالناقة وقال لهم: لا تمسوها بسوء، فتركوها مدة قليلة ثم عقروها فأنذرهم صالح بالعذاب بعد ثلاثة أيام، فتآمروا على قتله، فأهلكهم الله بالصيحة والرجفة، أما صالح والذين آمنوا معه فقد نجوا مما حاق بقومهم من العذاب، هذا ما نستطيع أن نفهمه من الروايات العربية، فلنرجع إلى ما ورد في التنزيل: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾[البقرة:٢١٢].

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما كانت عليه عقيدة الشعب في وجود الله، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ

(١) المسعودي ج٢ ص٢٩٥.

مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم: ٩-١٠]. فظاهر من هذه الآية أنهم كانوا يشكون في وجود الله في أول نشأتهم، وكذلك في عصر نوح قال الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾ [نوح:٢٢، ٢١، ٢٣، ٢٤][1]، وقد حكى الله عقيدة الشعب أيضًا على لسان نبيه هود عليه السلام، فقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأعراف:٧٠].

فالثابت من هذه الآية أن قوم هود لم يكونوا يعرفون التوحيد، فلما دعوا إليه لم يقبلوه، وكذلك كان شأن قوم صالح، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود :٦١-٦٢] ثم أتى إبراهيم عليه السلام فجادل أباه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٧٤] فقال له أبوه:﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢] وأتى باسماعيل في واد غير ذي زرع.

تدل الآيات السالفة على أن الوثنية استمرت من عصر إلى عصر، وتطورت من نوع إلى نوع، فكان كل نوع من الوثنية في كل فترة يختلف عن سواه، وكلما بعد الشعب عن عصر النبي زادوا في الكفر والطغيان والمعصية كما قال الله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ

(١) وانظر التوراة والتلمود في قصة الطوفان.

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٨-٥٩].

تهدينا الآيات السالفة إلى أن الناس كانوا أمة واحدة سواء كانت الأمة واحدة على الحق أو على الباطل[1]، وسواء أبدأت تلك الأمة حياتها من الحضارة أو من البداوة، وذلك كما قال «سبنسر»، وأغلب الظن كما أعتقد أن تقهقر المدينة لم يكن أقل من تطورها[2]، فبناء على ذلك تكون البداوة درجة الصعود في تطور الحياة كما تكون درجة النزول في تقهقر الحضارة، فالبداوة سواء أكانت درجة التطور أو التقهقر هي نقطة مبدأ حياة الإنسان، فاختلف الناس في هذا الموقف، وبدءوا يشكون في فاطر السماوات والأرض، وأتى عصر نوح فاستكبروا وعبدوا أصنامهم من دون الله ولم يكن الله عندهم فيما فهموا إلا إلهًا من الآلهة كما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ [الأعراف:٧٠]، وهكذا كانت عقيدة قوم صالح وهود، وكذلك كانت أمة إبراهيم تشرك بالله كما قال إبراهيم: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:٧٨]، فهذا يهدينا إلى أن الوثنية العربية في عصر الأنبياء بدأت بالشك في فاطر السماوات والأرض، وأصبح الله صنمًا كالأصنام الأخرى عند عاد وثمود، ثم استقرت الأمة على الشرك في عصر إبراهيم، ودعاهم هذا الشرك إلى إنكار الخالق، ثم إلى عبادة الأصنام تقربًا إلى الله زلفى، كما حكى عنهم الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

**وخلاصة القول:** أن الوثنية مرت من التعظيم إلى الشك، ومن الشك إلى الشرك

---

(١) تفسير فخر الدين الرازي.

(٢) Prinsiples of sociology by Prencer p ٩٣.

بالله على ولم تنقطع الوثنية في الفترات المتقطعة عند العرب بل كلما تركهم الله على الأرض أضلوا عباده ولم يلدوا إلى فاجرًا كفارًا، وهكذا كان شأن الإنسان دائما كما قال الله تعالى:﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ [الإسراء:٨٣]، وكذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء:٦٧].

وقصارى القول: أنه قدس بنو اسماعيل بناء الكعبة لاعتقادهم ما قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران:٩٧،٩٦]. ثم أتى بعدهم جيل آخر فنسوا غرض الأسلاف في الطواف حول الكعبة، واحترموا الكعبة لأغراض اقتصادية واجتماعية غير دينية، ودعتهم هذه الأغراض لاتخاذ المروءة سبيلاً لتنظيم حياتهم الاجتماعية، ولم تبلغ المروءة هذه الدرجة العالية كما نراها في الأمة العربية إلا بعد تطور تدريجي ولكن معالم هذا العصر مجهولة، ولا يذكر القرآن ولا التاريخ المدون الحالة الدينية في ذلك العصر، لأن أقدم حادثة تاريخية لها أثرها ويمكن الرجوع إليها هي حادثة انهيار سد مأرب منذ القرن الثاني المسيحي[1] تقريبًا، أما ما يتعلق بالقرون السابقة لتلك الحادثة فلا تعرف عنها إلا نزرًا يسيرًا من روايات غير محققة عند المؤرخين، ومن أمثالها ما يذكرون أنه حينما كانت سلطة اليمنيين تنتشر في أنحاء جنوب شبه الجزيرة العربية كان العدنانيون في ذلك الوقت يحتشدون في بادية الحجاز ونجد، ولكن هجرتهم كانت من ناحية الشمال[2]

(1) gistory of the World Historian

(2) p. ١٠٦ Vol BIII

بخلاف القحطانيين الذين دخلوا شبه الجزيرة من الجنوب[1].

ومهما كان قرب هذه الرواية من الصحة فإن التاريخ لم يحدد العصر الذي دخلت فيه تلك القبائل شبه الجزيرة. ومما لاشك فيه أنهم ظهروا في هذه البقعة منذ عهد قديم، وكثير من المستشرقين يعترف أن منشأ الساميين المتحضرين هو بادية العرب لا غير[2]. ولكن لا نستطيع أن نذكر شيئًا تاريخيًا عن هذه القبائل التي أصبحت أسطورة من الأساطير عند العلماء، وكل ما نعرفه عن طريق رواة العرب وعن المؤرخين المعاصرين[3] غير العرب، أنهم كانوا أمة همجية، وكانوا أهل خيام لا يستقرون في مكان، معاشهم من كسب إبل يرتادون بها المراعي والمياه، ولم يبنوا بيوتًا، ولم يُنشئوا مدنًا بخلاف أهل اليمن، الذين كانوا هم تابعين لهم، وفي القرن الخامس المسيحي ظهر فيهم كليب وهو رجل من قبيلة ربيعة -وهي قبيلة تنسب إلى نزار بن عدنان- فخلص قومه من نير سلطة القحطانيين، وأراد إقامة دولة عربية، ولكنه مات قبل تنفيذ رغبته، وبقيت العرب على بدواتها حتى ظهر فهر بن قريش في القرن السادس، فلا يبعد إذن أن يكون هذا العصر الذي يمتد من القرن الثاني المسيحي صاعدًا إلى القرون الماضية قبل المسيح هو عصر بدء الحياة العربية الطبيعية، وهو العصر الذي نشأت الوثنية فيه من عبادة الطبيعة، وعبادة السلف.

---

(1) Liter. History p. ١٠٦ Vol. VIII

(2) Historian's Histoty p.٢ مقالة نولدكه.

(3) تاريخ هيرودوت.

## الفصل الثاني

## الوثنية المحلية في البلاد العربية

ظهرت العرب في البادية تحيط بها الطبيعة من كل جانب وقد تعرضت حياتهم لتجارب شديدة كان سببها الصعوبة في تحصيل مرافق المعيشة. فكان العربي يبحث عن قضاء الضروريات التي لا مناص منها، فكان يجرب الأشياء، ويميز اللذة من الألم، والخير من الشر، وكان تفكيره يتطور مع تطور تجاربه في الحياة. وفي هذا التطور يتصل تاريخ الوثنية العربية بالنظريات العقلية العامة، كما يجوز أن تكون هذه الفترة أيضًا هي نقطة اتصال التاريخ بالنظريات العقلية التي بيناها في الفصول السابقة وسميناها بالمذهب الحيوي والمذهب الطوتمي، والواقع أن العدنانيين قد أخذوا يستكثرون التسمية باسماء الحيوان كما يقال: «ومن[1] ولد ربيعة بن نزار كلب بن ربيعة، ومكالب بن ربيعة، ومكلبة بنو ربيعة، وفيهم من السباع أسد وضبعه وذئب وذؤيب» وقد بينا أسباب التسمية باسماء الحيوان عند العرب.

وأهم رواية عربية تدل على وثنيتهم ما قاله الأزرقي[2]: «إن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم إلا احتمل معه من حجارة الحرم، تعظيمًا للحرم، وصبابة بمكة والكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم وخاصة، حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا (الوثنية) بدين إبراهيم واسماعيل، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات، وهكذا روى الكلبي، وروى الألوسي[3]: وكنا نعبد الحجر في الجاهلية فإذا وجدنا حجرًا أحسن

---

(١) الحيوان للجاحظ ص١٥١.

(٢) أخبار مكة ص٦٦.

(٣) بلوغ الأرب ج٢ ص٢١١.

منه نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه، ثم طفنا به، وقال أيضًا: «كنا نعمد إلى الرمل فتجمعه ونحلب عليه فنعبده وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض فتعبده زمانا ثم نلقيه». وروي عن أبي عثمان الهندي:[1] «كنا في الجاهلية نعبد حجرًا فسمعنا مناديًا ينادي: يا أهل الرجال: إن ربكم قد هلك فالتمسوا ربًّا، قال: فخرجنا على كل صعب وذلول، فبينما نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمنادٍ ينادي: «إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه» وإذا حجر، فنحرنا عليه الجزور». فظهرت من هذه الروايات أن العرب لم يعبدوا كل صنف من الحجر، بل ما استحسنوا من الحجارة وما أعجبهم منها، ومعظم تلك الحجارة المختارة كانت بيضاء اللون وكان لها علاقة بالغنم والجمل ولبنهما.

وقد بينا من قبل أن العقلية العربية لم تتطور من خيال تصوري إلى خيار اختراعي في العصر الجاهلي، فمن المحتمل أنه رأى في بادئ بدء شيئًا يشبه الكلب والضأن والإنسان فسماها رأس الكلب ورأس الضأن [2] ورأس الإنسان، وكذلك رأى في «ذي الكفين» و«ذي الرجل» حيث قال: «لعل هذه الاسماء قد أطلقت على الأحجار المقدسة التي كانت تشبه هيئة الإنسان في نحتها الردي»[3] ويؤيده ما ورد في الجلسد (اسم صنم كان بحضرموت) فقيل إنه كان «كجثة الرجل العظيم وهو صخرة بيضاء لها رأس أسود وإذا تأمله الناظر رأى فيه صورة وجه الإنسان»[4]. وقيل أيضًا: «كان لطيء صنم يقال له «الفلس» وكان أنفًا أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجا، أسود كأنه تمثال إنسان، وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويعقرون

---

(1) بلوغ الأرب ج٢ ص٢١١.

(٢) معجم البلدان (اسماء الجبال).

(٣) "Arabs" in Encyclopedia of Ethic & Relogion by Hasting

(٤) معجم البلدان ص ١٢٢ تحت ج.

عنده»[1].

هذا ما يتعلق بمنهج خيال العرب، أما ما يتعلق بكيفية نسج الأسطورة، فالعربي يسمي الجبال التسمية التي تكون وفق تصوره لها، وإذا أراد نسج الأسطورة لعب بالألفاظ ونمق العبارة، كما أنه يغرم بتسمية الأشياء حسب المزايا التي يوصف بها ذلك الشيء في تصوره، فإذا أردنا أن نبحث أسطورة عربية خالصة، فيجب أن نبحثها من وجهة صناعة العرب اللفظية والمنطقية، ذلك لأن العربي يسمى المواطن والأشخاص حسب الحوادث التي حدثت فيها، أو تعلقت بها، كما ورد في أخبار مكة[2]: فخرج مضاض بن عمرو بن قعيقعان في كتيبة، سائرًا إلى السميدع ومع الكتيبة عدتها من الرماح والدرق والسيوف والجعاب تقعقع بذلك - ويقال: ما سميت قعيقعان إلا بذلك- وخرج السميدع بقطور من أجياد معه الخيل والرجال- ويقال ما سمى أجياد أجيادًا إلا لخروج الخيل الجياد منه مع السميدع- حتى التقوا بفاضح فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل السميدع وفضحت قطور- وقال ما سمي فاضح فاضحًا إلا بذلك، وسمى مطابخ مطابخًا لأنه أطبخ للناس، هنالك، وكذلك قيل: إنما سمي «ثبير ثبيرًا» برجل من هزيل مات في ذلك الجبل فعرف الجبل به، وكان اسم الرجل ثبيرًا، ويقال[3]: إن الصفا والمروة كانا اسمي رجل وامرأة أثما في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين فوضعوا كل واحد منهما على الحجر المسمى باسمه لاعتبار الناس، ثم أتى عمرو بن لحي ونصب على الصفا صنما يقال له نهيك مجاور الريح، ونصب على المروة صنما يقال له مطعم الطير[4]، ويقال إن أسافًا ونائلة كانا رجلاً وامرأة من جرهم يقال للرجل أساف بن يعلى وللمرأة نائلة بنت زيد، وكان الرجل

(١) كتاب الأصنام ص٥٩.
(٢) أخبار مكة ص٤٠.
(٣) عجائب المخلوقات ص١٥٤«تحت الجبال»
(٤) أخبار مكة ص٧٣.

يتعشقها في أرض اليمن فأقبلا فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت ففجر الرجل بها في البيت فمسخا، فأصبحوا فوجودهما مسخين[1].

ومن أمثال ذلك ما قيل في جبل أبي قبيس في كنيته بأبي قبيس وهو: «أن آدم كناه بذلكم حين اقتبس من النار التي بين أيدي الناس[2]، وقيل: إنه أضيف إلى رجل من مذحج كان يتعبد فيه اسمه أبو قبيس، ومعنى «أبي قبيس» «شيخ الجبال»[3] وكان من قبل يسمى بالأمين، ولم يقف تصور العرب حول جبل أبي قبيس عند تلاعب الألفاظ والأوهام، بل نسجوا حوله أسطورة قصصية، فقد روي عن محمد أنه قال على لسان إياد بن نزار القصة التي يذكر فيها أن إيادًا حمل الحارث بن مضاض بن عبد المسيح على إبله إلى مكة فقال الحارث هذه الأسطورة في أثناء سفره، وخلاصتها أن هذا الجبل سمى باسم أبي قبيس بن سامخ، وهو رجل من جرهم كان قد وشي بين عمرو بن مضاض وبين ابنة عمه «مية» فنذرت أن لا تكلمه، وكان شديد الكلف بها، فحلف لأقتلن أبا قبيس فهرب أبو قبيس منه في الجبل المعروف به، وانقطع خبره[4].

وهاك أسطورة أخرى نسجت حول جبلي طيء، قيل سار «طيء» بإبله وولده حتى نزل الجبلين فرآهما أرضًا لها شأن، ورأى فيها شيخًا عظيمًا جسيمًا مديد القامة على خلق العاديين، ومعه امرأة على خلقه يقال لها سلمى، وقد اقتسما الجبلين بينهما.

فأجا رجل من العماليق يقال له أجا بن عبد الحي عشق امرأة من قومه يقال لها

---

(١) كتاب الأصنام ص٩.
(٢) معجم البلدان ص٩٤.
(٣) نهاية الأرب للمقريزي.
(٤) كتاب التيجان ص١٨٠ -١٨٧.

سلمى. فسألهما طيء عن أمرهما، فقال الشيخ: نحن من بقايا صحار، غنينا بهذين الجبلين عصرًا بعد عصر، أفنانا كر الليل والنهار، فقال له طيء: هل لك في مشاركتي إياك في هذا المكان فأكون لك مؤانسًا وخلاً، فقال الشيخ: (الجبل) إن لي في هذا رأيًا فأقم، فإن المكان واسع..... ويقال إن لغة طيء هي لغة الشيخ (الجبل) الصحاري والعجوز امرأته[1].... وقد يكون من أجل هذا تشخص الجبال في صورة شيخ أسطوري على خلق العاديين، قال الشاعر الجاهلي يشبه الجبل بكبير أناس:

كأن ثبيرًا في أفانين ودقه كبير أناس في بجاد مزمل

ثم أتى اللغويون ورأوا أن «أجا الرجل يعني فرّ»[2]، فكوّنوا أسطورة جديدة من أجزاء قديمة حول ثلاثة أجبل وهي: أجا، وسلمى، والعوجاء، فقالوا: إن أجا اسم رجل تعشق سلمى، وجمعتهما العوجاء وكانت لها حاضنة وكان يجتمعان في منزلها حتى نزل بهما إخوة سلمى وهم الغميم والمصل وفدك وفائد والحدثان[3]، فهرب أجا بسلمى وذهبت معهما العوجاء، فتبعهم زوج سلمى، فأدركهم وقتلهم، وصلب أجا على أحد الأجبل فسُمي أجا، وصلب سلمى على الجبل الآخر فسُمي بها، وصلب العوجاء على الثالث فسُمي باسمها قال الشاعر:

إذا أجأٌ تلفعت بشعافها عليَّ وأمست بالعماء مكللة

وأصبحت العوجاء يهتز جيدها كجيد عروس أصبحت متبذله

وقصارى القول: أن العربي الحجازي كان في هذه الفترة يبحث عن ربه في الأودية الخصبة، وكان ينسج الأساطير حول الجبال والآبار والأشجار، وكان يرى صورة ربه في الأحجار التي تسترعي نظره، ويرسم صورًا خيالية في الأحجار التي

(١) معجم البلدان ص١٢٧ط ليبزج.
(٢) لسان العرب «أجا»
(٣) معجم البلدان ص ١٢٣ط ليبزج.

كان يبحث عنها في كل واد، وهكذا كان شأن البابليين وجميع الأمم السامية في أول نشأتهم، فلا غرو أن كانت آلهة العرب من الآبار والأشجار والحيوان ونحو ذلك، لأن هذه هي المظاهر الوحيدة التي كانت العرب تشاهدها، وهي الملجأ الوحيد الذي كانت العرب تفزع إليه في حاجات ماسة، وتلعب بها حولها أوهامها وخرافتها في أوقات فراغها، ويؤيده ما ورد في حقوق حفر البئر وواجباته، فقد قيل: «والقليب [1] البئر العادية القديمة التي لا يُعلم لها رب ولا حافر فليس لأحد أن ينزل منها على خمسين ذراعًا، وذلك لأنها لعامة الناس»، فظهر أنه كان لكل بئر أرض وكلأ مخصوص محصور، كما كانت ذو العرجاء عينًا بإضم من ناحية المدينة، والعرجاء قطعة من الأرض حولها، فكان بعضها له رب يحميه، وبعضها لا يعلم له رب، والبئر الذي لم يكن له رب يكون الإله هو ربه وحاميه، وهذا ما يمسونه بأرض بعل، فهذا الحمى المعين لحدود خمسين ذراعًا حول البئر كان هيكل الصنم، وحرم الإله العربي القديم، وقد قال النبي ﷺ: «لا حمى إلا لله ولرسوله» وكان من حقوق هذا الحمى أن لا يظلم الناس في هذه الحدود، وأن لا يقنص الصياد الحيوان ولا الطير في هذه الأرض المقدسة، فلا يبعد أن يكون هذا هو غرض عمرو بن لحي في تنصيب الأصنام على مواطن المياه والآبار وسواحل البحر، كما قيل إنه نصب هبل على البئر التي كانت في جوف الكعبة، وسميت بالأخسف، وكذلك أقام أسافًا ونائلة على حفا في «زمزم»[2].

ويؤيده ما قيل في الأسطورة التي تبين أثر حرمة البئر في حياة العرب الاجتماعية وهي: «كان[3] في الكعبة على يمين من دخلها جب عميق حفره إبراهيم خليل

(١) لسان العرب ص٢٠ «بير».

(٢) وكذلك كان للجلسد حمى مرعاة لأمه وغنمه (معجم البلدان). وكان وادي سقام للعزى (كتاب الأصنام).

(٣) أخبار مكة ص١٦١.

الرحمن واسماعيل عليهما السلام حين رفع القواعد، وكان يكون فيه ما يهدى للكعبة من حلي وذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك، وكانت الكعبة ليس لها سقف، فسرق منها على عهد جرهم مال مرة بعد مرة، وكانت جرهم ترتضي لذلك رجلاً تكون عليه حراسته، فبينما رجل ممن ارتضوه عندها، إذ سولت له نفسه، فانتظر حتى انتصف النهار، وقلصت الظلال، وقامت المجالس وانقطعت الطريق، ومكة إذ ذاك شديدة الحر، بسط رداءه ثم نزل في البئر فأخرج ما فيها فجعله في ثوبه، فأرسل الله عزّ وجلّ حجرًا من البئر فحبسه حتى راح الناس فوجدوه فأخرجوه وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر، فسميت تلك البئر الأخسف، لأنه خسف بالجرهمي وحبسه».

وكذلك روي عن مجاهد قال: «دخل[1] مكة قوم تجار من الشام في الجاهلية بعد قصي بن كلاب فنزلوا بوادي طوى تحت سمرات يستظلون بها فاختبزوا على ملة لهم، ولم يكن معهم أدم، فقام رجل منهم إلى قوسه فوضع عليها سهمًا ثم رمى به ظبية من ظباء الحرم وهي حولهم ترعى، فقاموا إليها فسلخوها وطبخوها ليأتدموا بها، فبينما هم كذلك وقدرهم تغلي بها، وبعضهم يشوي، إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة، فأحرقت القوم جميعًا، ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات التي كانت تحتها».

هذا من بقايا الأساطير التي تدل على احتفاظ العربي بتقاليده في الحمى والبئر والجبال، فهو صورة من صور التعليل العربي في حالة تدوين الأساطير، فلا يبعد أن يكون النصب التي وجدت في بادية العرب مثل ذي الخصلة[2] (وكان مروة بيضاء

(١) حياة الحيوان ص٨٦.
(٢) كتبا الأصنام ص٢٤.

منقوشة)، وسعد[1] (وكان صخرة طويلة)، ورضاء[2] (وكان بيتًا لبني ربيعة) بقايا من هذا العصر، لأن لهذه الاسماء علاقة بالتفاؤل الذي كانت العرب تهتم به اهتمامًا عظيمًا، وقد رأينا ما كانت عليه أوهام العرب في شجرة العشر والسمرات وفي بعض الأحجار في المذهب الحيوي، وسنرى كيف تطورت هذه الأوهام في عبادة الشجر والحجر حتى صارت الأشجار والأحجار من آلهة العرب - من ذلك:

### ذات أنواط

كانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها: «ذات أنواط»[3]، وكانت ذات أنواط قريبة من مكة كما ذكره ياقوت، يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعتكفون عندها يومًا.

### ذو الخلصة

كانت تسمى الولية والعملات، وكانت بيتًا في قرية ثروق وهي من البيوت التي تعظمها العرب تعظيم مكة، لها سدنة وحجاب، وكانت تهدى لها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كما تطوف بالكعبة وتنحر عندها كما تنحر عند الكعبة.

وبيت ذي الخصلة يشتمل على نصبين أحدهما مروة بيضاء (وزاد الكلبي بأنه منقوش عليها كهيئة التاج)، وثانيهما شجرة الخلصة، ومعنى الخلصة في اللغة نبت طيب الريح يتعلق بالشجر، وله أوراق غير رقاق مدورة واسعة، وله ورد كورد المروزان، وهذا النوع من الشجر يسمى العبلاء، كما أن المروة البيضاء من الحجر

---

(١) كتاب الأصنام ص٣٧.
(٢)كتاب الأصنام ص٣٠
(٣) أخبار مكة ص ٧٧.

الأبيض تسمى كذلك «العبلاء» فليست ذو الخلصة إذن إلا نوعًا من تطور عبادة الشجر أو الحجر، وانتشرت عبادتهما[1] بتبالة بين مكة واليمن، وكانت تعظمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن[2]. وكانوا يستقسمون عند ذي الخصلة، كما قيل أن أمرأ لقيس لما خرج يطلب بثأر أبيه استقسم عنده فخرج له ما يكره، فسب الصنم ورماه بالحجارة وأنشد:

لوكنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة [3] زورا

وهكذا كانت العرب تتفاءل بالحيوان، وتقدس الشجر وتستقسم عند كل نصب كعادة الرعاة جميعًا.

**سعد:**

قيل إن سعدًا كان لمالك وملكان ابني كنانة بساحل جدة، وكان صخرة طويلة فأقبل رجل منهم بإبل له ليقفها إليه يتبرك بذلك، فلما أدناها منه نفرت، فذهبت في كل وجه، وتفرقت عليه، وأسف فتناول حجرًا فرماه به، وقال: لا بارك الله فيك إلهًا، أنفرت علي إبلي، ثم خرج يطلبها حتى جمعها وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعي لغي ولا رشد [4]

(١) أخبار مكة – تعليقات رشدي صالح أفندي.

(٢) كتاب الأصنام ص٣٥.

(٣) كتاب الأصنام ص ٣٥.

(٤) كتاب الأصنام ص ٣٧.

ومن هذا السبيل [1] «الحتمة» واحد حتم وهو القضاء، وهي صخرات مشرفات في ربع عمر بن الخطاب بمكة أو «الحطيم»[2] كان بمكة، وقيل: إن الجاهلية كانت تتحالف هناك، وكان العرب يتحطمون بالإيمان، فكل من دعا على ظالم وحلف إنما عجلت عقوبته، وكذلك إلال اسم جبل بعرفات، وقيل: إن إلال جبل عرفة، نفسه. وروي عن الزبير بن بكار: إلال هو البيت الحرام، وهذا يهدينا إلى أن إلال كان له علاقة بالبيت الحرام، فاشتبه الأمر عند المفسرين فقال البعض: إنه جبل عرفة كما قال الشاعر:

فأقسم بالوقوف على إلال ومن شهد الجمار ومن رماها[3]

وذهب البعض أنه بيت الله وسمي (إلالا) لأن الحجيج إذا رأوه ألّوا أي اهتدوا إليه، وقد يكون له علاقة بأوال[4] الذي كان صنمًا لبكر وتغلب ابني وائل.

هذا ما كان يتصوره العربي فيما حوله، وأما ما يتعلق بمشاهداته في السماء، فكان يرسم بريشة النظر على رقعة الفلك كل ما كان يرى في البادية، ويظهر هذا جليًا في الأساطير التي نسجت حول أشكال النجوم والأنواء، وقد بينا أهم تلك الأساطير في مدخل البحث.

أما تطور هذا الصنف في عبادة النجوم، فقد سبقني الباحثون في بحث ذلك الموضوع وكتبوا تحت مذاهب الصابئة كتبًا متعددة، لكني أرى أن منشأ الصابئة ليس ببادية العرب، بل لم ينتشر مذهب الصابئة انتشار الوثنية المادية في بادية العرب، وذلك لأن العقلية العربية لم تكن مستعدة لإدراك تصورات مجردة، مثل

(١) معجم البلدان ص٢١٦.
(٢) معجم البلدان ص٢٦٨.
(٣) معجم البلدان ص٣٢٠.
(٤) تعليقات زكي باشا في تكملته على كتاب الأصنام.

تجريد النجوم وتشخيصها في أشكال روحانية، وهذا ما رأى نولدكه إذ يقول: «يُظن أن مذهب العرب أو قل مذهب الساميين جميعًا مبني على عبادة النجوم، لكن هذا لا يتفق مع الحقائق التاريخية، ومما لا نزاع فيه أن العرب عبدوا الشمس والنجوم الأخرى في عصر متأخر جدًا، أما الأوثان المتعددة غير النجوم فلا يمكن تفسيرها بأنها شكل من أشكال الكواكب»[1]. وقصارى القول: أن الأساطير التي نسجت حول الجبال والآبار والأشجار تدل على أن الوثنية المحلية تنحصر في تقديس الأشياء التي استفاد بها العربي البدوي، لكنها لم تقف إلى هذا الحد، بل استمرت وتطورت تحت تأثير الحضارة المجاورة.

(١) Encyclpidia of Ethie &Religion "Arabs"

# الفصل الثالث

## الوثنية الخارجية في البلاد العربية

بينت في الفصول السابقة أن العربي الجاهلي قدس الآبار والأشجار والجبال، ولكن لم أرد بتقديسها أنه شخَّص الماء والخصب في شخصيات تمثل ربًا من أرباب الطبيعة، بل أردت أنه دهش منها وقدسها إجلالاً لندرتها في بادية العرب، وذلك لأن عقليته لم تكن مستعدة لإدراك تصورات مجردة، كما أن الأساطير التي نسجها حول النصب تدل صراحة على أنه لم يعبد الوثن معتقدًا أنه خالقه أو خالق الكائنات، لأنه تارة يستقسم عند الوثن، وتارة أخرى يسبه ويشتمه، ومرة ثالثة يأكله وقت المجاعة، ذلك إلى أنه لم يرد في الأخبار الجاهلية أن أمثال حاتم الطائي والسموأل، أو سدنة البيت مثل عمرو بن لحي وقصي بن كلاب ونحوهم ارتقوا إلى درجة الآلهة عند العرب كما أصبحت السدنة والملوك فيما عند الأمم القدماء، وقد يكون ذلك من أجل أن العرب لم تسجد أمام النصب مثل الوثنيين الآخرين، بل اقتصرت على الطواف حوله.

لم يكن الوثن في تصور العرب ربًا إلى القرن السادس ق.م، لأن عرب الحجاز ونجد لم يكونوا متصلين بالوثنية المجاورة ولم يتأثروا بالوثنية البابلية أو الرومانية أو اليمنية قبل ذلك القرن، نعم لقد غزا بختنصر تهامة فيجوز أنه نشر الوثنية الآشورية في تلك البقعة، أما الوثنية اليمنية فإن كانت قد دخلت في الحجاز ونجد فيكون ذلك بعد انهيار سد مأرب[1] منذ القرن الثاني المسيحي، فهي متأخرة، لأن حادثة عمرو بن لحي حدثت بعد هجرة أزد اليمن إلى الشمال.

---

(١) Historian's History of the World "Arabs"

ولكن إذا رجعنا إلى تنقيب الباحثين عن آثار الساميين[1] القدماء رأينا أنهم اتفقوا على أن الآشوريين واليمنيين كانوا يحتفظون في وثنيتهم بمكان واسع لأصنام الكلدان والآشوريين من زمن بعيد، فقد ورد في تاريخ العالم للمؤرخين أن نظرة سريعة في الأخبار التي وصلت إلينا تبين أن أساس التصورات الدينية عند القبائل السامية في بلاد العرب يكاد يكون مطابقًا لما يوجد عند الساميين في سوريا أو في وادي الفرات، ولا يبعد هذا عن الصواب لأن مدينة بابل وآشور كانتا أقدم مصدر للحضارة في شبه الجزيرة، ولو أنها لم تكن منبع الحضارة العالمية فيجدر بنا أن نعير الوثنية البابلية اهتمامنا لكي نعرف كيف تأثرت العرب بالعقائد المجاورة ولماذا تأثرت، ولأي سلطة دينية خضعت، ولأي ملة مالت.

قيل: كان البابليون يعتقدون في ثلاثة آلهة عظيمة أنو (Anu)[2] أي رب السماء، وبعل (Baal) أو مردوخ (Merduke)[3] خالق الأرض والإنسان، وهيا[4] (Ea) رب الماء تحت الأرض، وهذه الآلهة الثلاثة تكون الثالوث الأول، بينما الثالوث الثاني كان مركبًا من الإله سين (Sin) والإله (Shansh) إله الشمس. والإله (Rimman) إله الرعد والبرق. وكانوا أيضًا يعتقدون في الإله نرجال (Nergal) إله الحرب ونيبو (Nebu) إله النباهة، وكان لكل واحد من الآلهة أنو وبعل وهيا إلهة تزوج بها لتعاونه في إيجاد الخلق وهي أنت (Anatu) بعليت (Belit) ودومكينا (Domkina) وكانت من أعظم آلهتهم العشتار التي أرادوا بها فصل الربيع أو الطبيعة الهيولية، واللاتو (Allatu) ملكة الهاوية أو الموت (Hades) ومامناتو (وهي إلهة القضاء والقدر).

---

(١) Historian's Histoty of the World "Arabs"

(٢) Babylinains and Assyrian Literature

(٣) Kings Babylinians Religion

(٤) Eneyclopedia Britanica

ملاحظة: هذه الآلهة مأخوذة من تاريخ المشرق للمسيو ماسبيرو تعريب أحمد زكي باشا، في تاريخ كلد وآشور لأزدي شير.

م تكن وظائف الآلهة محدودة تحديداً معيناً لأنها تغيرت في كل عصر وفق دواعي البيئة، حتى ارتقت من الصفات الأرضية إلى الصفات السماوية، فاصبح مقر مردوخ في المشتري، ونرجال في المريخ، وعشتار في الزهرة، ونيبو في عطارد.

وكانت هذه الأصنام ترتفع في المراتب وتنزل وفق دواعي العصر، كما أن ميردوخ ورث سلطان آشور ونفوذه بعد ما أصبحت بابل عاصمة البلاد، وكان يعرف باسم بعلو كما كان يعرف باسمه الحقيقي الذي هو ميردوخ على السواء، وقد صار نابوبولاصر، ونابوناهيد في عصر حمورابي أعظم آلهة الكلدانيين شوكة، وبعده نقلت آلهة الكلدانيين من مدائنها ووضعت حول ميردوخ كالأتباع، ودارت الأيام دورتها واقتضى العمران تسيير الأمور القديمة وفق الدواعي الحديثة، فاقتضت عملية التوفيق والتطبيق أن تجتمع كافة الصفات التي كانت تتمتع بها الألهة المتعددة في ذات الإله مردوخ، الذي كان في مبدأ الأمر إله الشمس فقط، وبذا أصبح حامل صفات بعل وهيا وشمس ونرجال وسين وغيرها.

مرت على مردوخ أو بعل طقوس متعددة فكان في مبدأ الأمر إله الفصل، ثم صار إله الشمس وإله المطر، ثم خالق الإنسان في أسطورة الخلق البابلية. وكذلك مر على عشتار التي كانت تمثل فصل الربيع، فأصحبت ربة الحب والجمال، ثم إلهة الحب، ثم إلهة الزهرة.

ومردوخ والزهرة من الأصنام البابلية التي انتشرت عبادتها في بلاد العرب جميعًا، وكذلك إذا رجعنا إلى وثنية آشوريا واليمن رأينا أن أكثر أصنام بابل وآشور التي انتشرت عبادتها في سوريا واليمن هما أيضًا مردوخ وعشتار، وقد اقتفت هذه الأصنام عند السوريين واليمنيين أثر التغيرات الأرضية والسماوية التي طرأت على الوثنية الكلدية والآشورية، فكان أعظم آلهة سوريا: ساهور والشمس وحداد إله الرعد والبرق وقرينته أتارجيتس وكان هيكل حداد في هليوبوليس، وكان

الفلاحون يعبدونه كحارس الفصول، كما كان البابليون يعبدون مردوخ كرب الأرض، ثم اندمجت عبادة هذا الإله في عبادة الشمس، وفي العصر الروماني أصبح حداد جوبيتر (Jupiter) كما كان مردوخ (Marduke) يمثل الشمس أولاً ثم أصبح جوبيتر.

أما تأثير بابل في عقيدة بني إسرائيل فيظهر من مقارنة الأساطير المأخوذة من ألواح بابل بما ورد في التوراة، ولقد ذهب بعض العلماء إلى أن يهوا (jahweh) هو البعل عند اليهود، ويكفي ما كتبه كنج (King) في هذا الموضوع في كتاب ألواح الخلق السبعة[1].

وأما تأثير بابل في ديانة اليمن التي قيل إنها عبادة النجوم من جميع النواحي[2]، فذلك أن أهل اليمن كانوا يعتقدون القمر إلهًا ويؤثرون عبادته على إلهة الشمس، كما كان الكلدان تقدس وتقدم القمر على الشمس - إلا أن عبادة النجوم حتى عند البابليين لم تكن قديمة[3] وكما أن معظم أصنام اليمنيين وهي: استار (Sthar) -ود- ونانكروب والشمس، وآلهة حضرموت وهي: أستار وأنو مائي والشمس وآلهة سبأ وهي استار وهوياس والما كوهو.

كل هذه الإلهة ما عدا استار والشمس أصنام غير بابلية، وهي أيضًا غير ما عبد العدنانيون، فيظهر من هذا أن العدنانيين ما كانوا يختلفون عن اليمنيين في الحالة والمعيشة والحضارة واللغة فقط، بل كانوا يختلفون في وثنيتهم أيضًا، ذلك إلى أن معظم اليمنيين كما قيل كانوا يعبدون النجوم، بخلاف[4] العدنانيين الذين

---

(١) page XXXI.Seven Tablets of Creation.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية Encyclopedia of Islam(Arabia before Islam)

(٣) King's Babylonian Religion.

(٤) Encyclopedia of Islam "Arabs"

كانوا لا يعبدون النجم إلا قليلاً منهم، وذلك في عصور متأخرة.

ومن أغرب الأمور ألا تتأثر الوثنية العربية بأهل الجنوب كما تأثرت بالعرب الشماليين، وكان أجدر أن تكون الوثنية في بادية العرب هي الوثنية اليمنية نفسها لهجرة أهل اليمن إلى الشمال بعد حادثة سد مأرب، ولكن الوثنية الحجازية يظهر أنها صورة تقليدية للوثنية البابلية، فالوثنية العربية في هذا العصر اختارت شكلاً تقليديًا، وذلك لأن العربي رأي الأوثان المنحوتة فأحلها محل نصبه القديمة كما هي، وكذلك وقف على الأسطورة التي نُسجت حول تلك الأوثان فلم يزد فيها شيئًا من عند نفسه، بل أخذها كما هي، فدعت هذه الأساطير إلى تحويل عقليته من فكرة بدوية إلى فكرة زراعية، وقد ورد في أسطورة بابلية[1] أن الملك ازدوبار رأي في المنام أن نجوم السماء هوت على الأرض، وأن واحدًا منها كان شعلة من النار خلف وراءه عنقًا من النار مثل كرة عظيمة على ظهره فقامت النار هذه أمامه قيام إله عظيم مخوف، فلما أن زالت الدهشة عنه طلب الملك تعبير رؤياه من المنجمين، فوقفوا حائرين أمام هذا اللغز، فبحثوا عن ساحر عظيم، فذهبوا إلى هيباني (Heabani) النازل بعيدًا في الصحراء، فجاء هيباني وفسر حلم الملك، وقال: سيظهر إله من الآلهة تؤدي أعماله السيئة إلى البغض والعداء، فنجد فكرة مماثلة لهذه الأسطورة في الخرافة العربية التي تقول: إن ربيعة[2] بن نصر بن مالك التبع، رأي رؤيا هالته فبعث إلى جميع الكهان والسحرة والمنجمين من رعيته فاجتمعوا إليه، فقال: إني رأيت رؤيا هالتني، وفزعت لها، فقالوا: قصها علينا نخبرك بتأويلها، فقال: إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم في تأويلها، ولست أصدق في تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الذي يروع الملك لا يجده إلا

---

(1) Babylonian Literature p. ٣٣.Second dream of King Isdubar.

(٢) قيل إنه تبع الحميري في المسعودي ص٣٩٥ وفي كتاب التيجان ص ٢٩٣.

عند شق وسطيح. فلما أخبروه بذلك أرسل من أتاه بهما. فقال سطيح: أيها الملك إنك رأيت حمحمة (قطعة من النار) خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض تهمة، وأكلت منها كل ذات جمجمة، فقال الملك، ما أخطأت شيئًا فما عندك من تأويلها؟ فقال سطيح: أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبش، وليملكن ما بين أس إلى جرش.

فإذا قارنا بين هاتين الأسطورتين وجدنا أن الملك ازدويار رأى قطعة من النار في المنام فبعث رسولا إلى كاهن عظيم معروف في ذلك الزمان فأتاه به وعبر حلمه بأن تقوم الحرب ضد الملك، وهذا هو فحوى الأسطورة العربية، وذلك لأن الملك التبعي رأى مثل ازدوابار أي قطعة من النار، وبعث رسولاً إلى كاهن معروف عبر حلمه كما عبره هيباني.

ومما يدل على تأثر العرب بكلديا وآشور أن من عادة العرب تقديم الليالي على الأيام، كما قال البيروني: «إن العرب فرضت أول مجموع اليوم والليلة نقطة المغارب على دائرة الأفق فصار اليوم عندهم بليلته من لدن غروب الشمس عن الأفق إلى غروبها من الغد، والذي دعاهم إلى ذلك هو أن شهورهم مبنية على مسير القمر، مستخرجة من حركاته المختلفة، وأوائلها مقيدة برؤية الأهلة لا الحساب[1]».

وهذا يخالف نظرية الروم والفرس ويوافق نظرية الكلدان الذين كانوا يقدمون آله القمر على الشمس وكان يعتبرون الإله سين الرئيس والقادر.

ودليل آخر أن العرب تأثروا بوثنية الكلدان وآشور وهو ما قيل من أن كلمة صنم أصلها صلم (Salm) وهو كلمة آرمية دخلت البادية العربية، فثبت أن اسماء

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني

الأوثان لم تدخل هي فقط في بلاد العرب بل دخلت أيضًا كلمة الصنم مع دخول التمثال فيها، ويؤيده ما ورد عن أصنام تهامة، فقد قيل إن لوح تهامة يذكر اسماء الأصنام الآرامية الثلاثة وهي: صلم وسنكال وعشره، والصلم هذا في تفسير بعض العلماء عبارة عن بعل، وكذلك عبد العرب اللاتو (Allatu) ومامناتو وبعل (هبل) كما كان البابليون يعبدونها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه ثابت أن العرب لم ينحتوا الأصنام لجهلهم بالفنون الجميلة، فالظاهر أن الأصنام المنحوتة مجلوبة من الخارج، وسواء أكانت هذه الأصنام مجلوبة من الخارج،وسواء أكانت هذه الأصنام مجلوبة في عصر حديث، أو جاء بها العرب حينما افترقوا من إخوتهم الساميين، فليس منشؤها قطعاً التوين على العين بلاد نجد والحجاز، وإذ كان تحول الإله من بلد إلى آخر يشخصة في شخصية غير التي كان يتمتع بها في موطنه الأصلي، وكما كانت الأساطير التي نسجت حول ذلك الإله تصبغ بصبغة محلية وفق تبديل الإله من صفة إلى صفة أخرى تحت تأثير البيئات المختلفة فسنذكر من أشهر الأصنام البابلية التي انتشرت عبادتها عند العرب والأصنام التي نعرف عن أساطيرها شيئًا ما، ونترك الآلهة التي لا نجد سوى اسمائها، ومن أراد أن يطلع على تلك الاسماء الإلهية المتراكمة فحسبه ما ذكره الكلبي في كتاب الأصنام التي نسج الأستاذ لهوسن ( Wellhausen) حولها شبكة تخمينات وقياسات منطقية وبنى عليها الأستاذ نولدكه آراءه في مقالة «العرب»، أما أنا فلا أرمي إلى تلك الغاية، وذلك لأني أبحث عن تطور التفكير العربي مستدلاً بأساطيرهم الموجودة، فهاك أشهر الأصنام وأساطيرها:

## هبل

قال الأستاذ «جورجي زيدان» أن لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية[1] من معناه،

---

(١) أنساب العرب القدماء جورجي زيدان.

فهو غير مشتق من لفظ عربي، وعندنا أنه عبراني أو فينيقي، أصله «هبعل» ومعنى بعل (السيد) ثم قال: إن الهاء في العبري أداة التعريف مثل «أل» العربية، فبإضافة هذه الأداة إلى بعل يريدون الإله الأكبر.

وقال: أما العين الزائدة فسهل إهمالها بالتخفيف، ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصًا في لفظ بعل، لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه «بل» بإهمال العين، وهو اسم هذا الإله عندهم، وربما كان المؤابيون (Moab) يلفظونها «هبل». فإذا صح هذا التعليل اللغوي فلا يبقى شك في أن هبل هو بعل.

وذهب أورت (Oart) ودوزي (Dozy) إلى أن بعل الإسرائيلي هو هبل القرشي في مكة ثم قال[1]: «إنني أعتقد أن السؤال الذي يتعلق بكون عبادة بعل عبادة تنجيمية في أساسها لا جواب له، لأن علم النجوم -كما نعلمه- لم يكن موجودا في آسيا الغربية قبل عصر الآشوريين والكلدانيين، أو لم يكن له أثر ديني على الأقل»[2] وقد رأينا أن بعل تمتع بصفات متعددة، مرت عليه طقوس مختلفة، فأصبح بعل هذا مردوخ (Marduk) في بابل نفسها[3]، ثم دخل بعل في بلاد إسرائيل فانقسمت شخصية إله إسرائيل إلى شخصين، الشخصية الأولى هو بعل إله الخصوبة، والشخصية الثانية «يهوا» (jeheuoh) إله الفقر والبؤس والتقوى[4].

ثم أخذه الإغريق في القرن السابع قبل الميلاد وسموه أدونيس (ADONES) وكان اسمه البابلي «تموز»[5] وهو يلقب بالمردوخ MARDUKE وبعل أيضًا.

---

(1) The Worships of Bealim "in Israel" by Oart.

(2) The Worships of Bealim "in Israel" by Oart P.٣٦.

(3) Babylonaian Religion by King p.١٨.

(4) Hastings Dictionary of Bible "God' p. ٢٠١.

(5) goledn Bough p. ٣٢٥. myth of Adones

وقبل أن أقول شيئًا في صفة هبل في الحجاز ونجد أرى أن أترجم ما قاله نولدكه في هذا الصدد، قال: إن اللقب الإلهي بعل «السيد» الذي كان معروفًا عند الساميين الشماليين ورثة عرب جزيرة سيناء تحت اسم بعلو. والذي وجد في النقوش عقب اسماء العلم مثل «عبد البعلي» و«أوس البعلي» و«جرم البعلي».

ووجدت عبادة هذا الصنم بأرض شرف البعل التي كانت على الطريق الواصلة بين المدينة وسوريا، ولم تكن التسمية به عند العرب المتأخرين، ولكن بعض الكلمات العربية تدل على أنه كان معروفًا عند العرب زمنًا ما، ومن أمثال ذلك الكلمة «أرض البعل» أو «البعل» فقط، يطلق على الأرض التي لا تزرع من المطر ولا من الري بالآلة، بل تسقى من عين مختبئة تحت الأرض، ولذلك تأتي بأبرك الأثمار[1].

وخلاصة ما قاله نولدكه أن بعل ليس عربيًا بل أخذه العرب من جزيرة سيناء وعرفوه لفظًا ومعنى، وقد ورد في التنزيل: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ [الصافات:١٢٥]، فقال الله سبحانه بعلاً ولم يقل هبلا، وفي هذا ما يدل على أنه كان يسمى بعلاً عند بني إسرائيل.

وقد يكون له علاقة بأم هبير (UMM - HUBUR)[2] وهو من ألقاب تيامات (TAMTU)[3] البحر الأسطوري عند البابليين، فقد قيل: إن البابليين ينسبون خلق كل شيء إلى نهر أسطوري. وذهب الباحث عن مبدأ هذا النهر إلى أنه الفرات نفسه[4]، وأن أم هبير من ألقابه، ولا تخفى المشاكلة اللفظية بين هبير وهبل.

---

(١) Hasting Encyclopedia of Relighion & Ethic. Arabs by Noldeke.

(٢) Umm- Humbur.

(٣) p. xc. IV Seven Tablets of Creation.

(٤) Vol. I. Edited by L. W. King.

وكذلك يتفق معنى بعل «السيد» بمعنى هبير الذي يراد به ما فوق، والواقع أن «بل» (BEL)[1] كان إله الأرض والإنسان عند البابليين وبعل إله الخصب والزراعة في بلاد إسرائيل، فالمحتمل في هذه الحالة أن يكون هذا الإله إله الخصب عند العرب أيضًا، والدليل على ذلك أن عمرو بن لحي قدم بصنم يقال له «هبل»[2] من هيت من أرض الجزيرة، وكان هبل من أعظم أصنام قريش، فنصبه على البئر في بطن الكعبة، وأمر الناس بعبادته، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت، وحلق رأسه عنده..... وكان اسم البئر التي في بطن الكعبة الأخسف، وكانت العرب تسميها الأخشف، وقد بينا سالفًا تقديس العرب لمواطن الماء فإقامة هبل على بئر يشير إلى أنه كان له علاقة بالرزق والخصب في عقيدة العرب أيضًا.

كما كان اليهود يعتقدون أنه إله النعمة والسعادة، ويؤيد ذلك أيضًا ما ورد من بين الأقداح السبعة عند هبل التي ذكرها الأزرقي، قال: كان قدح فيه «المياه»[3] فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح، وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج عملوا به، وقالوا: «يا إلهنا، هذا فلان أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق».

لكن العرب لم تقتصر على الاستقسام به على المياه فقط، بل كما قال الكلبي: إنهم استقسموا بهبل، وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة أقداح مكتوب في أولها صريح والآخر ملصق ونحو ذلك، فهذه صيغة محلية دعت البيئة إلى أن تطبق العقائد القديمة الخارجية على العقائد العصرية الموضعية، فجعلت الأقداح للقضاء والقدر حسبما جرت عادة العرب فيه من قبل، وليس من المستغرب أن يكون الصنم

---

(١) p. ١٤. babylonian Religion.

(٢) أخبار مكة الأزرقي ص٦٨.

(٣) أخبار مكة الأزرقي ص٦٨.

على صورة الإنسان، وذلك لأن بعلاً كان كذلك عند الكلدانيين والآراميين، فإنهم كانوا يصورون[1] «بيل» على صورة ملك جليل جالس على عرش عظيم، ولم تشك العرب وكذا المستشرقون في العصر الحديث في كونه مجلوبًا من الخارج كما قال ابن الكلبي[2] : «كان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى-أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدًا من ذهب».

وكان لصناعة اليد المكسورة هذه أثر خالد في العقلية العربية التي أخذت منذ ذلك الزمن تتصور الإلهة في صورة الإنسان، كما يظهر من الخرافة التي رأت العزى في صورة امرأة.

فالعرب صوروا هبل كما صور الكلدانيون بعلا وعبدوه كإله الخصب مثل عقيدة اليهود فيه، ولذلك لا أتردد أن أقول: إن هبل كان إله الخصب والرزق، ومن ثم إله السعادة وشبه رب الأرباب، في عقيدة العرب، وهو الإله الذي عناه عمرو بن لحي حينما قال[3]: «إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطايف ويشتو بالعزى لحر تهامه».

**اللات**

هي[4] كلمة قديمة وردت في الأدب البابلي الذي يرجع عصره إلى ثلاثة آلاف سنة تقريبًا. وهي اسم إله من آلهة البابليين، وكانت هذه الآلهة من بنات رب الأرباب وأخواتها وهي: مامناتو (MAMNATU) وعشتار (ISHTAR).

وتظهر اللات في قصيدة فروسية ازدوبار (EPIC OF ISDUBAR) كالملكة التي

---

(١) تاريخ كلد وآشور المجلد الأول ص٧.

(٢) كتاب الأصنام ص٢.

(٣)أخبار مكة ص٧٤.

(٤) Babylonian and Assyrian literature p. ٩٤.

تحكم وتأمر على الهاوية التي سجنت فيها «عشتار»، ووصف الشاعر لتلك الحالة يثبت لنا أن اللات تمثل فصل الصيف، كما تمثل عشتار فصل الشتاء أو الربيع، ففي موقف من مواطن تلك القصيدة يصف الشاعر سجن عشتار ويقول: «إن عشتار[1] سجنت فانمحى الحب والحياة والخصب عن وجه الأرض، فسلط حكم اللات على الأرض وهو حكم شدة الشمس المحرقة والعطش والبؤس والفقر والفساد، ثم بعث رب الأرباب رسولاً إلى اللات وأمره أن يرش الماء على وجه اللات الغضبى ويهدئ شدتها بتلقيبها بألقاب متعددة لكي تفرح اللات برؤيته MAY ALLATS FACE REJOICE BEFOR THE SIGHT.[2].

فاللات تغيرت أحوالها حسبما اقتضى العصر كتغيير الآلهة البابلية الأخرى، وحينما دخلت اللات في سوريا أصبحت قرينة حداد (إله المطر)، وسميت بابارجيتس[3]. ثم أخذها النبطيون وسموها ربة البيت، ويظهر أن ذا شرى سموه رب البيت كما يظهر من نقوش النبطيين ومن نقوش أمبيرا في بعلبك[4]، وقيل على رواية إيبفانيوس (EPIPHANNUIS): إن ذا الشرى لم يكن إلا شكلاً من أشكال اللات[5]، ولذلك يصح ما روى ولهوسن من أن اللات إلهة الشمس[6]، ويؤيده قول استرابو (STRABO) الذي قال: إن النبطيين يعبدون الشمس.

وخلاصة[7] القول: كانت عبادة الشمس دخيلة في العرب كما قال ابن

---

(١) Babylonian and Assyrian literature p. ٩٣.

(٢) Babylonian and Assyrian literature p. ٩٤

(٣) Encyclopedia of Religion & Ethic Syria.

(٤) p. ١٨. The Religion of Ancient Palestine through the light of Arecology.

(٥) kinship & Marriage p. ٢٩٨

(٦) Encyclopedia of Religion Arabs

(٧) The Geography od Strabo p. ٣٦٩.

الكلبي، «هي أحدث من مناة» وهي من الأصنام التي جاء بها عمرو بن لحي حسب رواة العرب، فأخذها العرب من النبطيين، أما الدليل على أن العرب أخذوها من النبطيين فهو كونها صخرة مربعة بيضاء عند العرب كما كانت صخرة مربعة عند النبطيين[1].

وكانت بنو ثقيف يسمونها ربة كما كان النبطيون يلقبونها بربة البيت، وكان البابليون يرون فيها تمثال فصل الصيف والنبطيون يعتبرونها إله الشمس، وكذلك العرب ينسبون إليها فصل الصيف كما قالوا: «ربكم يتصيف باللات لبرد الطايف»، أما ما يتعلق بقولهم أن رجلاً ممن مضى كان يقعد على صخرة ثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مروا فيلتّ سويقهم، وكان ذا غنم فسميت صخرة اللات، فمات فلما فقده الناس قال لهم عمرو[2]: إن ربكم كان اللاتّ فدخل في جوف الصخرة[3]، فهو أسطورة حديثة اخترعت بعدما ضاعت الخرافة القديمة التي بيناها آنفاً، ويجوز أن تكون هذه الصخرة غير الصخرة المربعة التي كانت تسمى باللات فإذا صح ذلك جاز أن تتسع هذه الأسطورة حول آلات ذي العرجاء التي قال فيها أبو ذؤيب[4]:

فكأنها بالجزع بين تبايع وآلات ذي العرجاء نهب مجمع

وأما الأسطورة الثانية فاخترعت بعد ضياع الأسطورة السابقة فهي لا تتبين أي صفة من صفات الآلهة المذكورة، وذلك لأنها فكرة عربية خالصة، وهي نتيجة العقلية التي لا تخترع صوراً خيالية، وكلما حاولت هذه العقلية توليد الأسطورة حول

(1) Kiniship p.٢٩٩.
(2) أخبار مكة ص٧٤.
(3) أخبار مكة ص٧٤.
(4) معجم البلدان المجلد الأول ص٣٢٠.

ذلك الوثن، نسبت الصخرة أو العين مع أكمتها (آلات ذي العرجاء) إلى الرجل المحترم الذي كان يخدم الحجيج على مجرى عادتهم القديمة.

**العزى**

نرى في النقوش[1] البابلية كلمة (IZZU-SARRI) وذهب المفسرون في تفسيرها إلى أنها تدل على ملك النار، وإذا كان يراد بالنار ملكاً فمعنى العزو «النار» في اللغة البابلية. أما في العبرية فهي مشتقة من مصدرين: إما من عزاز يعني شدد وقوي، وإما من عز «يعني ألجأ»، فالمحتمل أنه يراد بالعزى في العبرية «الأقوى»[2]. وعلى رواية تيودورس بركون هي نجم، كما قيل: إن «استرتا هي نجم الصبح. ولها اسماء كثيرة تختلف باختلاف الألسنة، فطيء دعتها عوزى، واليونان أفريدوت (APHRIDUTA)، والقدشيون طشمقيت، والكلدان بلتي، والآراميون استيرا، والراداتيون ملكة شعيا، والعرب ناتي»[3].

فيظهر من كل هذا أن كلمة العزى من لغة بني طيء؛ والمعروف عند المؤرخين القدماء أنهم كانوا يسمون العرب طيئاً [4]. فنستطيع إذن أن نقول: إن العزى عند العرب هي بيلتي أو عشتار عند البابليين، وقد قيل في الأدب البابلي: إن عشتار دعيت ميليتا (MYLITHA) أو بيلتي (BILLITS) في عصر هيرودوت[5]. وقصارى القول: أن العزى عند طيء هي عشتار عند البابليين. وقد انتشرت عبادة عشتار في البلاد العربية

---

(١) Babylonian literature p.١٢.

(٢) p. ١٠٥. Religion of palestine.

(٣) تاريخ كلد وآشور المجلد الأول لأزدشير ص٨.

(٤) Historians History of the World.

(٥) Babyloinia literature p. ٦٥.

كغيرها من الآلهة البابلية[1]، وتغيرت أحوالها بتغيير المناطق والأقاليم، وإن بقيت معها بعض مزاياها السابقة، فاندمجت في عبادتها طقوس عبادات متعددة فكانت عشتار «إله فصل الربيع والحب» وحبيبة مردوخ (MARDUKE) أو بعل (BEL) إله الأرض والإنسان في بابل، ثم أصبحت عشتار نجم الصباح في عصر حمورابي. ولو صح ما ذهب إليه فريزر فمثلت عشتار دور أفريدوت (APHRODITE) عند الإغريق وهي التي خبأت أدونيس (بعل) عند طفولته في الصندوق الذي أودعته عند برسيبون ( PRESEPHONE) (اللات)[2] لثبت أن عشتار وبيلتي وعزى كلمات مترادفة المعنى.

لا ريب أن العرب عبدت العزى، يقول نولدكه: «إن الشاعر السوري إسحاق الأنطاكي الذي كان يعيش في أوائل القرن الخامس يذكر عبادة العزى عند العرب المعاصرين، وفي بعض المواقف يحقق أن العزى هي الزهرة (VENUS).

وفي أوائل القرن السادس أهدى المنذر ملك الحيرة إلى العزى قرباناً من الإماء الأسرى كما ذكر ذلك لنا الكاتب السوري الذي كان معاصره. وقال أيضاً معاصره بروكوبيس: إن المنذر نفسه قدم ابن حليفه المسيحي الملك الحارث قرباناً إلى العزى وكان أسيره.

وذكر لنا عبادة الزهرة عند العرب كثير من المؤرخين مثل إيفرمن سيرس (المتوفى ٣٧٣ بعد المسيح) وجرومي وتيودورس وإيفاجنيس. وحكى نيلوس (NILUS) المتوفى سنة ٤١٠م قصة القبيلة العربية البدوية التي كانت تهدي الذبائح في صور ة متوحشة إلى نجم الصبح تحت اسم العزى على أغلب الظن[3] وكذلك قال الكلبي إنها كانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون إليها.

---

(١) منع انتشار عبادة بعل.

(٢) golden Bought the myth of Adonis.

(٣) Encyclopedia of Religion & Ethic "Arabs"

عبدت العرب العزى، ولكن ما الدليل على أن عبادتها دخيلة وأنها هي نفس عبادة عشتار؟ رأينا أن عشتار كانت تمثل فصل الشتاء في أسطورة تموز البابلية،ثم مثلت الخصب والحب والجمال، وأصبحت بنت الإله أي أم بني آدم، وتطورت من صفات أرضية إلى صفات سماوية حتى صارت الزهرة عند الإغريق، وهكذا نرى تطور العزى عند العرب، فكان لها في مبدأ الأمر علاقة بالشتاء كما يظهر من قول العرب: «إن ربكم يشتو بالعزى لحر تهامة»[1].

ثم صارت إلهة الخضر حينما قامت على ثلاث سمرات في وادي نخلة، وصعدت إلى السماء في صورة امرأة حسناء، وسميت الزهرة كما قال البلخي في قصة هاروت وماروت: «اختلف المسلمون في ذلك اختلافًا كثيرًا، فروى بعض أهل الأخبار أن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم قال للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة:٣٠] . فلما خلق آدم وأظهرت ذريته في الأرض الفساد، قالت الملائكة: يارب أهؤلاء الذين استخلفتهم في الأرض؟ فأمرهم الله أن يختاروا من أفاضلهم ثلاثة ينزلهم إلى الأرض ليحملوا الناس على الحق، ففعلوا، قيل: وجاءتهم امرأة فافتتنوا بها حتى شربوا الخمر وقتلوا النفس وسجدوا لغير الله سبحانه وتعالى، وعلموا المرأة الاسم الذي كانوا يصعدون به إلى السماء فصعدت، حتى إذا كانت في السماء مسخت كوكبًا، وهي الزهرة، قالوا: وخُيِّر الملكان بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا، فهما معلقان بشعورهما في بئر بأرض بابل؛ يأتيها السحرة فيتعلمون منها السحر».

وقد روى عن ربيع بن أنس[2] أنه قال في هذه القصة كانت امرأة حسنها في

---

(١) أخبار مكة ص٧٤.

(٢) البدء والتاريخ للبلخي ج٣.

النساء كحسن الزهرة، مع أنه ليس في كتاب الله شئ من هذا، ويظهر من هذه الرواية أن خرافة مسخ الزهرة دخلت في قصة هاروت وماروت على يد المفسرين تحت تأثير دواعي العصر، فإذا طرحنا مسخ الزهرة من قصة هاروت وماروت فإنه لا يضر ولا ينقص شيئًا من أساس القصة. أما ما يتعلق بجزاء الملكين فكفى ضلالتهما في تعلم السحر وقتل النفوس والشرك بالله بأن يعذبهما الله تعالى.

وخلاصة هذه الرواية، أن العزى عند العرب مثلت امرأة حسناء في صورة الزهرة مثلما ظهرت في بابل وعند الإغريق، رأت كافة طقوس العبادة التي رأتها عشتار عند البابليين.

كانت امرأة حسناء وبنتًا من بنات الله في تصور العرب؛ كما كانت امرأة حسناء وبنت الإلة عند البابليين.

أما في الخرافة التي تقول: إن خالد بن الوليد بعث إلى العزى ليهدمها، فخرج خالد بن الوليد وهو متغيظ؛ فلما انتهى إليها جرد سيفه، فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ناثرة شعرها[1]؛ فإنا نرى الوجه الجميل قد تغير فيها إلى وجه امرأة سوداء كريهة المنظر، وما ذلك إلا رد فعل الأسطورة القديمة في عصر الإسلام؛ وهاك دليلاً آخر، قال كوك (COOK)[2] وهو يصف تمثال عشتار: إنها امرأة تلبس القلائد والقرط والقناع، أما القناع فهو من ميزات تمثال عشتار، وكانت هذه الإلهة تسفر عن وجهها أمام عبادها فقط. وقيل إن مثل هذا السفور يتراءى لنا في الألواح الأكادية. وكذلك[3] وجدت الآلهة الملبسة القناع في بترا (PETRA) فالقناع الذي كان من مميزات عشتار كان للعزى في تصور العرب كما قال شاعر:

---

(١) أخبار مكة ص٧٥، وبتغيير بسيط في كتاب الأصنام للكلبي.

(٢) Religion of palestine p. ١٣٦.

(٣) Foot-note Bel. Pales. P. ١٣٦.

أعـــزى شـــدى شـــدة لا تكذبـــي أعـــزى القـــى القـــناع وشمـــري

أعـــزى إن لم تقـــتلي المـــرء خـــالدا فـــبوئى بـــإثم عـــاجل أو تنصـــري[1]

وصفات العزى المتعددة هذه حملت نولدكه على أن يشك في كونها إلهة نجمية في عقيدة العرب المتأخرين، إلا أن العادات الكثيرة المتعلقة بعبادة نجم الصباح عند البابليين وغيرهم توافق العادات التي انتشرت عند العرب في عبادة العزى، وورد في الأدب البابلي أن البنات كانت تباع في عيد عشتار[2] في عصر إزدوبار (ISDUBAR)، وكذلك قال اسمث: إن الزهرة بأرض ألوسة كانت الإلهة (ذي الخلصة) التي انتشرت عبادتها بتباله في اليمن، وكانت تجتمع حولها نساء دوس في عيدهم[3]، وكذلك كان للعزى علاقة بالنساء والزواج، وهذا ما نراه في عادات العرب الجاهلية، قال الألوسي: كانت المرأة من العرب إذا عسر عليها خاطب النكاح نثرت جانبًا من شعرها وكحلت إحدى عينيها مخالفة للشعر المنثور، وحجلت على إحدى رجليها، ويكون ذلك ليلاً، وتقول: «يا نكاح! أبغي النكاح قبل الصباح!»[4]، فيسهل أمرها وتتزوج عن قريب، فانظر إلى كلمة «قبل الصباح» فإنها تدل صراحة على أن تلك البائسة تحذر وتنذر الناس في تسهيل أمرها قبل طلوع نجم الصباح.

وزيادة على ذلك كان الحمام والغزال من حيوان عشتار عند البابليين والسوريين، وكذلك كان يقدس الحمام والغزال وقد وجدت الغزال في بئر زمزم، ولا يخفى أثر الغزال في حياة العرب الجاهليين؛ ولقد كانوا مغرمين بتشبيه النساء الجميلات بالغزال.

---

(١) كتاب الأصنام وأخبار مكة ص٧٥.

(٢) Babylonian literature.

(٣) P. ٢٠١ Kinship & Marriage.

(٤) بلوغ الأرب ج٢ ص٣٣٠.

فهذه المقارنة بين صفات العزى وعشتار تحملنا على أن عبادة العزى عند العرب هي نفس عبادة عشتار. ويؤيد كونها دخيلة في الحجاز قول الكلبي: «هي أحدث من اللات ومناة، وذلك أني سمعت العرب سمت بهما قبل العزى»[1].

وإذن نلخص القول فنقول: إن العزى عند العرب تقلبت في كافة الطقوس الأرضية والسماوية التي تمتعت بها عشتار عند البابليين، فالعزى بنت «هبل» إله الخصب والرزق، ومثلت فصل الشتاء ضد اللات التي مثلت فصل الصيف، ثم أصبحت نجم الصباح حينما ظهرت اللات في صورة الشمس. ليس بغريب كل هذا لأن الفصول[2] في فلسطين كانت تمثلها صورة امرأة.

### مناة

اشتقاقها في اللغة العربية إما من (م. ن. ن ) أو من (م. ن. ا)[3]. أما الأول فهو إما بالضم مثل المنة فمعناها القوة، وإما بالفتح (منة) ومعناها القطع أو النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين:٦]، ومنه المنون «الدهر» والمنون أيضًا المنية لأنها تقطع المدد وتنقص العدد.

وأما الاشتقاق الثاني فمنة المنية ويراد بها الموت، واشتقاقها من منى له أي قدر والجمع «المنايا»، والمنية واحدة المنى، وقال صاحب مفردات القرآن «المنى التقدير» يقال مني لك الماني «أي قدر لك المقدر. وكذلك أراد به صاحب لسان العرب القدر إذ قال: «حتى تبين ما يمنى لك الماني»، فيراد من «مناة» القدر عند اللغويين.

---

(١) كتاب الأصنام للكلبي.

(٢) Religion of Palestine p. ٢٠٥ Foot – note.

(٣) مختار الصحاح.

والواقع أن القدر كان مركز أفكار العرب، والمحور الذي كانت تدور حوله رحى التصورات الجاهلية، ولقبه الشعراء الجاهليون باسماء مختلفة مثل المنون والمنية، والدهر، والزمان، وأشباه ذلك. يعبر عنه طرفة بالأيام كما قال: «ستبدى لك الأيام ما كن جاهلاً».

فهذه الاسماء المختلفة والتشبيهات الشعرية دعت نولدكه إلى أن يزعم «أن العرب صوروا بعض المعاني في شخصية الآلهة وشخصوها بجميع المزايا المادية، وذلك لأنهم منذ عهد قديم عرفوا بعض القوى الطبيعية التي تتوقف عليها سعادة الإنسان وشقاوته، أجل إن كثيرًا من هذه الشخصيات لا يتجاوز حدود الشعر، ومنها الزمان الذي يتوهمه العرب بأنه السبب الوحيد لنعيم العيش وشظفه، كما يزعم الذين قالوا: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية:٢٤]. وكذلك يلمح الشعراء إلى تأثير الدهر والزمان الذي يلقبونه بالليل والنهار، ويصورونه كالذي يسوق الناس إلى الموت، وكالرامي الذي لا تطيش سهامه.

وقال الأستاذ في موقف آخر: إن شاعرًا من قبيلة بني بكر بن وائل أنشد في بيت من أبياته أن سهام عوض (الدهر) رمته في عضلاته ومفاصله، والعوض على رواية الكلبي صنم بكر بن وائل وكان الشاعر من تلك القبيلة نفسها. ومن هذه التشبيهات يستدل الأستاذ على أن العرب شخصوا المعاني في شخصيات مادية خيالية[1].

«نعم» لقد كان الدهر رامي السهم وساقي كأس المنية في تصور العرب، لكن العرب لم يكتفوا بهذه التشبيهات بل قالوا:

---

(١) Encyclopedia of Religion & Ethic Arabs.

والمـــــــــنايا جواشـــــــــم كالصـــــــــقور المدلــــــــة

ومثلوا المنية بالأعمى، كما شبهوا فعل المنية بخبط عشواء كما قال الشاعر:

رأيـت المـنايا خـبط عشـواء مـن تصـب تمـته ومـن تخطـى يعمـر فـيهرم[1]

فكأن المنايا تأتي على غير قصد بخلاف القدر يأتي بالقصد، وكذلك المنية لا تنحصر في القضاء والقدر، بل تكون على قول ابن شميل: منى بمعنى ذبح[2].

وعلى رواية الجوهري يراد بالمنية الناقة الأيام التي يتعرف فيها ألاقح هي أم لا، فظهر من هذا أن العرب استعملوا كلمة المنية بمعنى القدر مجازاً، ونستدل على ذلك بأن منى موضع بمكة قديم العهد، وسمى منى على رواية لسان العرب[3]: «لما يمنى فيها من الدماء» أي يراق ويؤيده ما قال ابن شميل: «سمى منى لأن الكبش منى به أي ذبح».

فقد يكون منى في أول نشأته مذبح الجاهليين، وقدس عند العرب كتقديسهم للأحجار الأخرى. وقد بينا الأسباب التي دعتهم إلى عبادة الأحجار. أما ما يتعلق بقول نولدكه من أن العوض الذي يراد به الدهر كان صنمًا تعبده العرب فهو فكرة شاذة، كما يعترف بها الأستاذ نفسه.

والعرب على جري عادتهم أطلقوا معنى الدهر على أشياء مختلفة. فكان اللبد بمعنى الدهر، والعوض نفسه من اسماء النسور التي لم تكن إلا عبارة عن عمر طويل في أسطورة لقمان بن عاد التي ذكرناها سالفًا. فلا أخال أن شغف العرب

---

(١) معلقات.

(٢) لسان العرب.

(٣) لسان العرب ص١٦٣.

بالدهر وبما يتعلق به دعاهم إلى تصور الدهر في شخصية الآلهة مثل الأمم المتحضرة، كلا! لم يتطور التطور العربي إلى درجة خيال كهذه في الأيام الجاهلية. ودليل آخر على ذلك، أضافت العرب الضمائر المستترة إلى المنية فقالوا: لحقني الدهر، أدركته منيته، وكذلك استعمل كثير من الشعراء كلمة المنايا جمعًا أكثر مما استعملوها مفردة فقال مثلا أبو ذؤيب: «**منايا يقر بن الحتوف لأهلها**»، وكذلك قال السويد ابن عامر المصطلقي «إن المنايا توافى كل إنسان»، وقال زهير بن أبي سلمى «**فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا**»[1]، فثبت من هنا أن للمنية تصورات متعددة في الذهن العربي، ولم تجتمع صفات الموت والقدر والزمان في شخصية واحدة، فكيف والحالة هذه نعتقد أن العرب شخّصوا الدهر في إله، وأنهم أقاموا الصنم معبرين به عن تلك الأحلام.

وفضلا عن ذلك لم تتفق العرب في تشبيه الدهر، فصوروه تارة في صورة الرامي الذي لا تطيش سهامه، وتارة أخرى في صورة الصقر، وشبهوه ثالثة بالأعشى الذي يخبط خبط عشواء في تنفيذ أعماله، فلم يرسموا الدهر على لوح الذهن في صورة كاملة.

فهذه التشبيهات مع نقائصها لم تكن إلا خيالا شعريًا، وكل ما يمكن استنباطه من تكل التشبيهات فهو لا يزيد عن كونه دلالة على تطور التصور العربي في عصر متأخر، وأن ذلك التطور لم يصل إلى درجة الخيال القصصي المبني على ارتباط العلة بالمعلول ارتباطا منسجمًا مثل اليونان والإغريق.

فثبت أن العربي لم يمثل القدر إلهًا، واكتفت عقليته الساذجة المحدودة أن تقنع بأن الدهر هو المحيي والمميت، ولم يطرأ بباله يومًا ما أن يجرد هذا الدهر مما

---

(١) معلقة زهير.

يحيط به من المادة والمحسوسات، وأن يصعد به إلى سماء المعاني المجردة.

ولكن هناك[1] صنم على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقديد بين مكة والمدينة، يسمونه مناة، وههنا أوس وخزرج يعظمونه ويذبحون له ويهدون إليه، وهذا عمرو بن الجموح[2] اتخذ في داره صنمًا من خشب يقال له: «مناة».

وقد تسمى العرب عبد مناة وزيد، مناة فماذا كان المراد بهذه العبادة عند العرب؟ لقد بينا سالفًا أن التمثال مع كلمة الصنم دخيل في بادية الحجاز ونجد فكانت مناة هذه صنما وفق ما ذكره أغلب الرواة، وكانت أقدم الأصنام التي جاء بها عمرو بن لحي كما قاله الكلبي، فبديهي أن عبادتها دخلت في بادية الحجاز ولم تولد فيها، ويؤيده ما ورد في الأدب البابلي أنه كان لهم آلهة الموت والقدر باسم مامناتو[3] (MAMNATU)، وكذلك ورد مناواة في أقدم النقوش النبطية[4]. فلا يخفى على القارئ المشابهة البارزة بين كلمة مامناتو ومناواة ومناة.

وأما من قال إنه صخرة (لسان العرب) فيجوز أن تكون عبادة مناة المجلوبة اندمجت في عبادة منى القديمة، ثم اشتبه الأمر على العرب المتأخرين فشتت آراءهم، وانتصرت فكرة المتحضرين على البداوة. وقد تكون تلك التشبيهات من منتجات ذلك التصادم الفكري.

**وخلاصة القول:** كانت مناة العربية هي نفس مامناتو البابلية، لأن الدهر والقدر في تصور العرب والشعراء الجاهليين رجل لا امرأة، أما «مناة» فهي بنت الإله

---

(١) كتاب الأصنام صفحة ١٣.

(٢) سيرة ابن هشام صفحة ٢٧٢.

(٣) Babylonian literature p.٩٢.

(٤) Encyclopedia of Ethic & Religion Arabs.

عند العرب. قال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴾ [النجم:٢١]، كما كانت بنت الإله عند البابليين، وقد مثلت الموت عند العرب كما كانت تمثل الموت والقدر أيضًا عند البابليين، وقد قالوا في خطابهم إلى مامناتوا: «يا مناة يا إلهة القدر والموت» «ويا أيها الروح المخيف وملك الموت[١]».

'' OMAM-MITU. THOU GOD OF FATE & DEATH.''

'' THOU SPIRIT OF FIERCE HATE & PORTING BREATH.''

فمناة عند العرب تمثل الموت لا الدهر، لأن الدهر في تصورهم ذكر ومناة أنثى. وقد يكون من أجل هذا استقسم العرب عند هبل وذي الخلصة، ولم يستقسموا عند مناة بل حلفوا أمامها كما يقول عبد العزّى بن وديعة المزني:

إنـــي حلفـــت يمـــين صـــدق مـــرة    بمـــناة عـــند محـــل آل الخـــزرج[٢]

وتأثير هذا الحلف والوفاء بالعهد في حياة العرب الاجتماعية لا يحتاج إلى مزيد من التعريف، ويؤكد صفة مناة ما قيل من أن سيفين (مخذوم ورسوب) وجدا عند مناة حينما هدمت عام فتح مكة[٣] لأن السيف رمز العدالة والإنصاف عند أهل البادية.

**ود**

اشتقاقه في اللغة[٤] العربية من ودد يعني تمنى أو أحبّ، وهي قريبة من كلمة

(١) Babylonian literature p. ١١٠

(٢) كتاب الأصنام ص١٤.

(٣) كتاب الأصنام ص١٥.

(٤) مختار الصحاح.

بابلية دودو (DNDAIM أو DU DU) ويراد به شجرة الحب (MAN-DRAHC)[1] وقد تكون (ودد) العربية (دود) العبرية أو البابلية لأن كثيرًا ما يحدث التقديم والتأخير في استعمال الحروف، فمثلاً كلمة «حنش» تكتب في العبرية نحش، وكلمة جنوب تكتب نجب، لذلك يمكن أن يكون الفعل ودّ الذي هو في العبرية دود يدل على الحب، ومن هذا نعلم في العبرية أن كلمة دود (DOD) معناها الحبيب، ثم دواديم (DWADIM) معناها الحب أو التسيب أو الغزل، ثم يكون معنى الاسم داود. وبالعبرية (داود) يدل على الوداد والمحبة. فيظهر أن ودًا تطور عن شجرة الحب البابلية.

ويثبت أنه دخيل في بادية الحجاز كونه صنمًا قبل كل شيء وليس من النصب، وقد بينا أن العرب لم ينحتوا الأصنام بل جلبوها من الخارج، وأنهم أخذوا مع تلك الأصنام الأسطورة التي كانت تتعلق بها، ويؤيده ما قال الكلبي أن عمرو بن لحي جاء بالأصنام من بلقاء أو من هيت، فوزعها بين قبائل مختلفة، وكان من هذه الأصنام: ودّ.

هذا وقد قيل: إنه صنم إغريقي الأصل لأنه يشبه الصنم المعروف باسم إيرس (EROS) ودليلهم على ذلك أن تمثال ودّ كان على رواية الكلبي[2] رجلاً كأعظم ما يكون من الرجال «قد ذُبر (أو دثر) عليه حلتان، متزّر بحلة ومرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلّده وقد تنكب قوسًا، وبين يديه حربة فيها لواء وفضة (جعبة) فيها نبل» فهذا يشبه إيرس الإغريقي الذي يمثل الرامي بقوسه ونباله. لكن نولدكه[3] يشك في كونه إيرس، وذلك لأن ودًا يحمل السيف واللواء ومدثر بحلتين، وهذا لا يوجد في تمثال إيرس (EROS)، فهو يميل إلى أنه ليس بصنم إغريقي. وكون تمثال ود لا

---

(١) Babylonian literature page ٢.

(٢) كتاب الأصنام ص٥٦.

(٣) Encyclopedia of Religion & Ethic Arabs.

يتفق مع تمثال إيرس لا يدل عل كونه صنمًا عربيًا بل يؤكد أنه غير صنم إغريقي فقط؛ هذا والاختلاف في وصف التمثال لا يمنع علاقته بإيرس في وظيفته، لأنه قد يكون إيرس نفسه تمثالاً فينيقيًا مثل أدونيس وتغيرت صورته في اليونان. وقد قيل إن ودًا بهذا الاسم مثل القمر عند اليمنيين[1]، وتلقب مردوخ باسم دو-دو (DU-DU) في بابل[2] فكان ود يمثل بعل أستيره (ASTARTE) في اليمن وعاشق عشتار في بابل، وصورة إيرس إله الحب عند الإغريق.

وعبد العرب ودًا كما يظهر من اسم العلم «عبد ودّ» واتفقت روايات على أن ودًا كان من الأصنام التي استمرت عبادتها من عصر نوح إلى عصر الإسلام، ومثّل ود دور الحب عند العرب أيضًا.

وكان أول من أجاب دعوة عمر بن لحي إلى ذلك الصنم عوف بن عذرة[3]، وقبيلة عذرة لا تحتاج إلى مزيد التعريف في كونها المثل الأعلى للحب والعشق والصفة. وهذه القبيلة هي التي قيل لرجل منها: «ما بال الرجل منكم يموت في هوى امرأة؟ إنما ذلك ضعف فيكم يا بني عذرة، فقال: «أما والله لو رأيتم النواظر الدعج، تحتها المباسم الفلج، فوقها الحواجب الزّجَ، لاتخذتموها اللات والعزّى[4]»، وقصارى القول: لقد مثل ود الحب عند العرب كما يظهر من انتسابه إلى بني عذرة، ومن قول الشاعر أيضًا:

حـيـاك ود فإنـا لا يحـل لـنا ... لهـو النسـاء وإن الديـن قـد عـزما[5]

---

(1) Encyclopedia Beritanica " Arabs".

(2) The Seven Tablets of the Creation. The Fifty Tilles of Mardouke p. ١٧٣.

(3) كتاب الأصنام ص٥٥.

(4) صبح الأعشى الجزء الأول ص٢١٧.

(5) كتاب الأصنام ص١٠.

فهنا يشير الشاعر صراحةً إلى أنه كان لود علاقة بلهو النساء قبلما يعزم الدين. وأما ما قاله نولدكه[1] من أن كلمة «ود» لم تستعمل في الحب الجنسي عند العرب القدماء، بل كان لهم كلمات أخرى لذلك المعنى، فهذا لا يمنع من أن يكون ود صنم الحب والعشق، وذلك لأن وداً صنم مجلوب وكذلك معناه كما قلنا سالفاً. فيجوز أن يكون العرب المتأخرون استعملوا وداً في معنى الحب ولو مجازاً بعد انتشار عبادة ذلك الصنم. فقول نولدكه يؤكد أنه صنم خارجي، وكذلك لفظه ومعناه.

**قزح:**

قيل أن كلمة[2] كوز (KOS) وجدت في اسماء اليهود القدماء مثل باركوس (BARKOS) يعني ابن كوز، ورأى «كوك» علاقة بينه وبين الآله الأدومي (EDOMITE) الذي هو من أجزاء الاسماء مثل كوش ملكا (KOUSH-MALAKA) وكوش جبري (KOUSH-GABRI) وهما من الاسماء التي يرجع زمنها إلى عصر تجلت بلاسر الثالث (TIGLOTH PILESER III) وقال «كوك»: إن كوز إله[3] أدومي وإنه القزح العربي والرامي اللاهوتي الذي كانت نباله البرق وكان قوسه قوس قزح، فقد كان إله الجبال والبرق والرعد والمطر وكان العرب يحافظون على عبادته بقرب مكة[4].

فهو يقابل حداد (HADAD) إله المطر عند السوريين، وريشب (RESHEPH) إله الحرب عند البابليين، وصفة قزح توافق الآلهة التي كانت تمثل وظيفة إله الحرب مثل أبولو (APPOLO) الإغريقي، فظهر من هذا أنه صنم أدومي (EDOMAEAN)

---

(١) Encyclopedia of Religion and Ehic (Arabs).

(٢) Religion of palestine p. ٢٠٤.

(٣) Religion of palestine p. ٢٠٣.

(٤) Religion of palestine p. ٢٠٤.

وانتشرت عبادته في أنحاء شبه جزيرة العرب واعتنقه العرب أيضًا[1] كما قال صاحب معجم البلدان أن جمع ضد التفرق هو المزدلفة وهو قزح وهو المشعر المسمى جمعًا لاجتماع الناس به، فكان هذه الصخرة الوثن الذي عرف قوسه بقوس قزح، والذي أصبح شيطانًا في عصر الأديان.

ويؤيده تقاليد العرب أيضًا وذلك لأن العرب كانوا يوقدون النار على مزدلفة، ونار المزدلفة أشهر نيران العرب في الأدب الجاهلي. وكانوا يقصدون منها نزول الغيث، فكان «قزح» إله الرعد والبرق والمطر عند العرب ومن ثم إله الحرب أيضًا.

(١) معجم البلدان ص١٣٨.

# الفصل الرابع

## تصور الإله عند العرب

كان الناس أمة واحدة ثم اختلفوا، فبعث الله الأنبياء، فآمن من آمن وضل من ضل واتبع هواه، ولم يلتفت إلى ما قاله الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ [النساء:١٣٥]. هذا ما ورد في التنزيل، وهو يثبت الروايات والتقاليد القديمة، فإذا وافق الإسناد التاريخي الروايات والنقول لقلنا بصفة المؤرخ: إن مجيء إبراهيم في واد غير ذي زرع هو وصول فكرة التوحيد إلى البادية العربية. وإذ نحن بصدد البحث في تفكير الأمة، فيجب أن نفضل النقل المتواتر على آراء المؤرخين.

وعليه نقول أن التوحيد كان معروفًا في عصر اسماعيل كما يظهر من الروايات؛ غير أن بني اسماعيل نسوه فيما بعد وضلوا عن سواء السبيل، كما يظهر من بعض أقوالهم وتقاليدهم حول الأوثان، ولذلك سنبحث تصور الإله من وجهتين، كما قسمنا بحث التفكير العربي الجاهلي في المذاهب المتعددة.

ينقسم بحث تصور الإله إلى قسمين: الأول بحث تصور الإله قبل التاريخ. والثاني، بحث تصور الإله في عصر التاريخ، وهذا البحث الثاني يتفرع إلى فرعين: الفرع الأول هو الزمان الذي كان يعاصر الأنبياء، والفرع الثاني الزمان الذي يراد به الفترات المتقطعة بين نبي ونبي آخر، وهذه الفترات تمثل فكرة الشعب فيما فهموا ضد الأنبياء كما بينا في تاريخ الوثنية عند العرب.

## الفصل الخامس

## الإله في عصر ما قبل التاريخ

قال دافيدسون (Devidson) في مقالته[1] (God) : «لعل الاسماء: «إيل» (El)، و «إيلوهيم» (Elahim)، و «شدّى» (Shaddai)، و «يهوا» (Yehweh)، كانت تستعمل في عصر ما قبل التاريخ، فمعانيها مبهمة ومجهولة».

وقيل: إن كلمة إيل وجدت في نقوش كثيرة، وعثر العلماء على اسماء مثل: وهب الإيل، وعبد الإيل، وزيد اللّه، وعبد اللّه في النقوش التي اكتشفت في إقليم الصفا، ولم يرد لفظ اللّه أو هلّله (hallah) في النقوش النبطية كاسم علم، بل كان دائما يصحب اسما من اسماء الأصنام، إلا في نقوش الصفا التي وجد فيها لفظ اللّه «منفردًا بذاته».

قال ولهوسن: «لعل العرب مثل النبطيين يلقبون كل صنم من الأصنام «باللّه»، فلفظ اللّه الذي كان لقبًا في أول نشأته أصبح علمًا لأكبر إله[2]». وذهب بعض الباحثين إلى أن هذا اللفظ يشتق من كلمة عبرية معناها شدد وقوي، ويجمع الإله على إيلوهم.

وورد في النثر العربي مصحوبًا بالصفات كالإله الأزلي والإله المتعلل، لكن الأنبياء والشعراء يستعملونه علمًا. ووجد في اللغة الآرامية كالإيله (Elah) وفي اللغة العربية «إله»، ومع أداة التعريف الإله أو «اللّه»، وقال الرازي في إيراد حجج الذين

(1) Hastings dictionary of Bible p. ١٨٩.

(2) Encyclopedia Ehic & Bible (Arabs) Dictionary of Bible. by hastings (١٠٩) c. تفسير فخر الدين الرازي.

قالوا إنه اسم مشتق، قال: فإنهم ذكروا فيه فروعًا ، يقال: إن الإله هو المعبود سواء عبد بحق أو بباطل، ثم غلب في عرف الشرع على المعبود بالحق، وقيل: إن مشتق من الوله وهو ذهاب العقل، ومن لاه إذا ارتفع، ومن أله في الشيء إذا تحير فيه ولم يهتد إليه ، ومن لاه يلوه إذا احتجب؛ لكن المذهب المختار عنده أن هذا اللفظ اسم علم لله تعالى ، وأنه ليس بمشتق ألبته.

وكل ما يثبت من هذه المناقشات اللغوية أن كلمة الإلهة لها علاقة بما قبل التاريخ، وأنهم كانوا يطلقونها على العلي العظيم أحيانًا كاسم علم، وأحايين كلقب وثن، وبعد هذا يجدر بي أن أنتقل إلى البحث التاريخي لكي أعود إلى ما بدأت.

# الفصل السادس

## الإله في عصر التاريخ

بدأنا التاريخ بمجيء إبراهيم إلى مكة، إذ ولد في العراق ونشأ في حضن الوثنية، وبلغ رشده، فأنكر ربوبية الأوثان، وشرع يبحث عن ربه في المظاهر الطبيعية قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[1] [الأنعام:٧٦ - ٧٨]، فكان إبراهيم يبحث عن الخالق في الخلق وعن الصانع في صناعته، ثم هداه الله تعالى إلى ملكوته فعرف ربه الذي لم يزل ولا يزال.

وجاء بهذا الإله الغائب عن الحواس البشرية، والمحيط بكل شيء[2]. وأقام له ذكرًا في بادية الحجاز وجعله قبلة مباركة للناس ثم ينقطع التاريخ إلى أن نجد شذرات في القصص التي دونت في التوراة في القرن الثامن أو العاشر (ق.م) أو في الروايات المبعثرة والمدونة في عصر الإسلام.

وإذا رجعنا إلى تلك القصص نشعر بوجود فكرتين في ذلك العصر: أولاهما عقيدة الأنبياء، وثانيتهما عقيدة الشعب؛ فكانت عقيدة الأنبياء تمثل عقيدة إبراهيم، قال داودسن[3]: «ولم يطرق بال أي نبي ولا بال مصنفي التوراة أن يحتجوا على وجود الإله، ولو فعلوا ذلك لكان من غير جدوى، لأن الأنبياء وكتاب التوراة

---

(١) وانظر The Talmud, selection from by H. polons page ٢٢.

(٢) القرآن والتوراة في الإصحاح السادس عشر.

(٣) The Theology of old Testament. By A.B. Davidson. Page ٣١.

عاصروا البيئة التي كانت تعتقد في الإله من قبلهم»، ومع اعترافنا بقول داودسن في مصنفي التوراة، لا نرى أنهم عاصروا البيئة التوحيدية، وذلك لأن فكرة الشعب التي تحكي عنها التوراة نفسها تخالف عقيدة مصنفي التوراة، وكذلك النقوش التي تفسر فكرة الشعب تخالف فكرة التوحيد، وليس هذا بموقف يستدعي الاستغراب كما استغرب منه «كوك» حينما قال: «إن النقوش تدل على الوثنية والكتب المقدسة تدل على التوحيد»، ذلك لأن الكتب المقدسة تعلن أنها جاءت مخالفة عقيدة الشعب.

والواقع أن أودية العرب ظلت ساحة الكفاح والمناظرات بين الوثنية والوحدانية منذ عصر قديم، ويظهر هذا من المقارنة بين النقوش التي تذكر عدة أصنام لكل بلد، وبين الكتُب المقدسة التي تهاجم وحدانيتها تلك الفكرة الجاهلية من كل صوب. وكم من الكتاب والفلاسفة في عصرنا هذا ليستمسكون بنظرياتهم الخاصة وهي تختلف عما عليه عامة الشعب، ما دام هذا شأن التابعين، فماذا يكون شأن الأنبياء الذين يجاهدون في إعلاء كلمة الله بتأييد الوحي والإلهام والإرادة الإلهية؟

ظهر الأنبياء وهم يعتقدون في الإلة الواحد القهار، فكانوا يميزون الخالق عن الكائنات، فلم يكن الإله عندهم من بين مظاهر الطبيعة، بل كان العلة الأولى لتلك المظاهر، ثم ورث العبرانيون عقيدة الإله الواحد من آبائهم الأولين؛ ولم يتدرجوا من عبادة الموجودات إلى فكرة التوحيد.

ويعتقد العبرانيون أن الإنسان لم يصل إلى معرفة الإله بشق الأنفس، بل الإله أظهر نفسه وعرف ذاته، وكلم أتقى عباده وهداهم إلى سواء السبيل؛ فظهر الله لموسى عند الشجرات وعلى الجبال، وللأنبياء الآخرين في الإلهام والوحي، ولكن العبرانيين أيضًا لم يبقوا علىٰ فكرة التوحيد كما علمهم الأنبياء، بل كلما بعدوا

عن عصر النبي ذهبوا بعيدًا عن تعاليمه، وفي روايات التوراة نرى أن الله الذي كان هو خالق الأرض والسماوات أصبح إله بني إسرائيل فقط، وذلك لأن موسى لما ذهب إلى فرعون قال له : «هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعبُدوا إلى في البرية»[1].

فعلى هذه الرواية إنما دخل موسى مصر لينقذ بني إسرائيل من مصر، لا ليدعو فرعون إلى إله العالم كله. كما أن يهود مصر نسوا إله إبراهيم وإله آبائهم، حتى بلغ من نسيانهم له أن الله لما قال لموسى[2]: «فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر». قال له موسى : «لله من أنا حتى أذهب إلى فرعون، وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر». فقال : «إني أكون معك وهذه تكون لك العلامة أني أرسلتك حينما تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل». فقال موسى: «لله ها أنا آتى إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم، فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم؟». فقال الله لموسى: «أَهْيَهْ الذي أَهْيَهْ»[3]. ويظهر من هذه الآيات أيضًا أن العبرانيين هم شعب الله، وقد قال موسى: «لكي تعلموا أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل»[4]. فهذا الإله المحصور في شعب بني إسرائيل هو كأي صنم آخر كانت القبائل تعبده.

كان العبرانيون يدعون الله برب إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وبرب العبرانيين، كما كان الوثنيون يدعون إلهم برب قريش وبرب آشور وبابل وبرب ربيعة، ويؤكد ذلك رواية أخرى، قيل: لما جاء يثرو حمو موسى وأبناء زوجته إلى موسى وبين لهم

(١) خروج الإصحاح الخامس عدد (١).
(٢) خروج الإصحاح الثالث عدد (١٠ – ١٤).
(٣)خروج الإصحاح الثالث عدد (١٠ – ١٤).
(٤)خروج الإصحاح الحادي عشر عدد (٧).

موسى ما صنع الله لبني إسرائيل على المصريين، قال يثروا: «الآن علمت أن الله أكبر من كل الآلهة»[1] فكانوا لا يفرقون بين الله والآلهة الأخرى قبل نصرة بني إسرائيل على المصريين؛ وبعدما رجع بنو إسرائيل إلى فلسطين وعاشوا مدة في الخفض والدعة أخذوا يشخصونه على شاكلة الإنسان من جميع النواحي، واحتجوا بأنه «خلق الإنسان على صورته»[2].

فلم يكن الله في تصور اليهود ذا عينين ولسان ويدين ورجلين، وإنما كان ذا عواطف ووجدان مثل البشر، فتجسدت هذه المعاني في تصورهم، فصار إله العبرانيين المعنوي إلهاً ماديًا كالأصنام الأخرى، وقال داودسن: «إنه يظن أن أهل مواب (MOAB) وأدوم (ADOME) الذين كان إسرائيل ينسب إليهما كانا موحدين، والحق إنما كان للمواب صنم كيموش (CHEMOSH) وكذلك كان يهوا إله اليهود في الجنوب وبعل إله بني إسرائيل في الشمال[3]، فبدأ التنازع بين هذين الصنمين وانتهى بانتصار يهوا، وظل يهوا إله بني إسرائيل إلى أيام هجرتهم، فكان يهوا هو المحي والمميت وخالق الأرض والسماوات والإنسان، وكان له بنات وبنون كما قيل «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا، فقال الرب: لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة، كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضًا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادًا. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم»[4]؛ ولم يفكروا أن الأرض والسماء لله جميعًا؛ ويظهر هذا جليًا إذا نقرأ وصية يعقوب ويوسف لأبنائهما

---

(١) ترجمة التوراة لأبي سعيد بن أبي الحسن بن أبي سعيد السامري الجزء الثاني ص٢٠٥.

(٢) تكوين عدد (٢٧).

(٣) Dictionary of Bible p. ٢٥٨.

(٤) تكوين الإصحاح السادس عدد (١-٤).

عند الموت «فوصى كلاهما أن إله بني إسرائيل يرجعهم إلى فلسطين ليرثوا تلك الأرض فقط، فيؤخذ ميتهما إلى أرض فلسطين، وأن لا يدفن في أرض مصر»[1].

بعدما زالت مملكة سليمان وداود، وأصبحت بلاد بني إسرائيل مستعمرة الروم؛ وصار بنو إسرائيل في منتهى الذلة والمسكنة، واحتملوا الشدائد والعذاب من جميع النواحي أخذوا يذكرون العيشة الرغيدة التي تمتعوا بها في مملكة داود فتمثل لهم هذا الرجاء الأمل في عقيدة عودة المسيح، وفي هذه الفترة ظلت عقلية اليهود في حالة تقهقر، وكانت عقيدتهم تتبع عقلية السلطة والحكومة، ولذلك أثرت فلسفة الروم والوثنية المجاورة في عقيدتهم أثرًا كبيرًا، ويتجلى هذا في فرق اليهود الدينية، فمثلا فرقة «إسنيس» (ESSENES) تنقسم إلى فريقين: عمليون ونظريون، وكانت عقيدة الفريق الأول كما يرى «موشيم»[2] «كانوا مثل اليهود الآخرين يعتقدون في وحدانية الإله ولكن يظهر من بعض مدارسهم أنهم كانوا يقدسون الشمس، وذلك -غالبًا- لاعتقادهم أنه إله صغير أو صنم مثل الإله المتعال»، «أما النظريون فكانوا أيضًا يعترفون باليهودية وكانوا يحبون أن يعرفوا بخلفاء موسى-فكانوا أجانب لتعليم موسى»[3] وخلاصة ما قاله موشيم في العقيدة اليهودية في هذا العصر أن فلسفة الشرق هي عبارة عن اعتقاد أن وراء الطبيعة قوة إلهية ذات علم وعقل، وأنها الخير كل الخير، ونور السماوات والأرض، وأنها أزلية، وظلت في الخفاء والسكوت أزمنة طويلة، ثم أنتجت إرادتها الشيئين، فاختلفت المذاهب في تسميتها وفي عدد ما أنتجت من اختلاط هذين الشيئين.

أثرت هذه الفلسفة في العقيدة اليهودية كل التأثير؛ وظهرت في بعض الفرق

---

Talmud , Selection from by poinas page, ١١٢ & ١٢٨. (١)

The Eceliastical history. by I. d Mosheim. P ٩٠. (٢)

Mosheim p. ٩٦ (٣)

المسيحية الأولى، وكانت العقيدة المشتركة عند اليهود أن لملك الظلام مع شركائه وعماله أثرًا كبيرًا في أمور الكائنات والإنسان، وكان ذلك الأثر عظيمًا إلى درجة لم يترك فقط قوة في يد الإله الأكبر[1]. هكذا كانت العقلية اليهودية في منتهى التأخر، ولقد كان قنوطهم من خروجهم من نكبتهم ومن اشتداد المسلطين عليهم داعيًا أن ينتظروا قوة فوق الطاقة البشرية لتنقذهم من هذه الحالة، وقد وجدوا في عقيدة عودة المسيح المذكورة في التوراة ما كانوا يرجون.

ويقول موشيم: «إن أكثرية شعب اليهود كانت تنتظر ظهور المنقذ الذي وعد به الله آباءهم، ولكن مقاصدهم لم ترم إلى الذي وصفته التوراة، لأنهم ما كانوا يرجون منجي الأرواح، بل القائد القوي القادر الذي يرجع لهم حريتهم»[2].

جاءت آمال اليهود بأبرك الثمار، وظهر المسيح الموعود به من بين اليهود في عائلة داود، ونشأ في معابد اليهودية، ولم يعرف مسيحيته، إلى سن ثلاثين، وإلى هذه السن لم يكن قد ألحقت به الألوهية أو شبه الألوهية. أما بعد الثلاثين لما أعلن أنه المسيح الموعود به والمنقذ من تلك المذلّة فقد عرف كابن الله على عادة الساميين الذين يسمون الأبناء على اسم رب القبيلة، خاصة إذا لم يعرف اسم أبية انظر

.(R. SMITH; RELIGION OF SEMITES " DEITY AS FATHER ")

لم تظهر ألوهية المسيح إلا بعد ما أعلنها بولس أوسال (SAUL-PAUL) اليهودي العالم بفلسفة الروم واليهود، إذ قال في رسالته إلى أهل كورنثوس: «أي أن الله كان في المسيح مصالحًا العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم وواضعًا فينا كلمة

---

(1) Mosheim p. ٧٠، وانظر التكوين، الإصحاح الأول ١٦ وهي... فعمل الله النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم.

(2) Mosheim. P. ٧١.

المصالحة[1]». ويدلنا هذا إلى أن نشأة عودة المسيح كانت مبنية على أنه يخرج اليهود من تلك المذلة. فأساس المسيحية هو إصلاح اليهودية وإقامة الدولة اليهودية لا أنها دين عالمي: فالمسيحية أيضًا لم ترفع تصور الإله عما كان عليه اليهود، بل نقلت العبادة من القديس الصنم على عبادة الرجل، فكان عصر المسيح عصر صار فيه الرجل إلهًا عند النصارى كما حكى عنه الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١٧]. ثم اختلف اليهود والنصارى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠].

هكذا كان تصور الإله عند اليهود والنصارى، وهكذا كان تصور الإله في البيئة التي نشأ فيها بنو اسماعيل المتأخرون وظهر فيها الإسلام، فإذا كان تصور الإله عند اليهود والنصارى كتصور الوثنيين المجاورين، وإذا كان أهل الأديان يعبدون الشمس وتمثال مريم وعيسى ابن مريم، فكيف نقول أن العربي الدهري بالطبع، والوثني بالتقاليد، كان يعتقد في وحدانية الله تحت تأثير اليهودية والمسيحية وقد ثبت أن لغة[2] المسيحية في الشرق كانت الآرامية أو الشامية، ولم يوجد أثر لاستعمال اللغة العربية في المعابد المسيحية.

فالعربي الجاهلي الذي لا علاقة له بفهم الفلسفة كيف يفهم فلسفة اليهود والنصارى؟ وذلك أيضًا مما سمع عن المتكلمين باللغة الآرامية. ولذلك لا نرى أثرًا لنظرية اليهود والنصارى في الشعر الجاهلي مع أننا وجدنا وصف البيئة والراهب وأثرًا لعقيدة أكبر الآلهة.

وكل ما يستطاع أن يقال في هذا الصدد أن العربي الجاهلي لم يتأثر باليهود

---

(١) رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس الأصحاح الخامس عدد (١٩).

(٢) The origin of islam in its Christien environment by R. Bell. P. ١٧.

والنصارى في عقيدة الوحدانية كما تأثر اليهود والنصارى بوثنيته. وإذا التفتنا إلى أوائل عقيدة بنى اسماعيل نرى أن اسماعيل كان يوحد الله مع أبيه إبراهيم، ثم تسكت الروايات عن ذكر الفترة التي كانت بين وفاة اسماعيل وظهور عمرو بن مضاض الجرهمي ويذكر الرواة أن[1] عمرو بن مضاض هذا! كان يعظ الناس ويمنعهم عن الظلم والمعصية في البلد الحرام، ويذكرهم بعذاب الأمم التي أهلكها الله تعالى.

ثم نجد بني عدنان الذين كانوا يرحلون من واد إلى واد آخر في ارتجاع الكلأ، وكانوا يعبدون أحجار الكعبة وأشجارها. ثم نرى عمر بن لحي وقد نصب الأصنام حول الكعبة. وظل الناس في عبادة الأوثان مدة طويلة، وسموا عبد هبل وعبد العزى وزيد اللات، فلما اتصلوا باليهود والنصارى وتأثروا بعقائدهم وتقاليدهم اعتقدوا في الله اعتقاد اليهود وخلطوا وثنيتهم باليهودية، فكان لكل قبيلة عربية صنم يعبدونه ويحلفون به، وهو ربهم المخصوص كرب قريش ورب ربيعة ورب الشعرى، واللات والعزى، وكان له بنات مثل إله اليهود.

والمحتمل أن لفظ الله أصبح لقبًا من الألقاب الإلهية المقدسة في تصور العرب، وأخذ يطلق على كل فرد من تلك الأصنام، فكان[2] يراد بالله تارة «هبل» على تعبير ولهوسن (wellhausen)، وتارة ود، وفق الصنم الذي تنتمي إليه القبيلة. وهناك دليل أسطورة عربية[3] (لما هدموا الكعبة وبلغوا أساس إبراهيم وجدوا في حجر من الأساس كتابًا فدعوا له رجلاً من أهل اليمن وآخر من الرهبان فإذا فيه: «أنا الله ذو بكة حرمتها يوم خلقت السماوات والأرض والشمس والقمر، ويوم صنعت هذين

---

(١) أخبار مكة للأزرقي «باب ما جاء في مسألة إبراهيم وبناء الكعبة».

(٢) Encyclopedia of Ethic &Religion. "Arabs".

(٣) أخبار مكة ص٢٧.

الجبلين وحففتهما بسبعة أملاك حنفاء)[1] فلو لم يكن الله صنمًا في تصور العرب فمن كان الله ذو بكة هذا؟. ودليل آخر[2] «قال الزبير بين العوام لأبي سفيان بن حرب : يا أبا سفيان، قد كسر هبل، أما إنك قد كنت منه يوم أحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم عليك؟» فقال أبو سفيان : «دع هذا عنك يا ابن العوام، فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان». فظهر من هذا أن إله محمد ﷺ في عقيدة أبي سفيان بعد فتح مكة أصبح أقوى من إله قريش (هبل) لذلك تغلب عليهم، كما نقول لبعض الرجال إنه أقوى من فلان. ولا نقصد بذلك أنه الوحيد في العالم. ودليل آخر على أنهم كانوا ينكرون الإله المعنوي، فقد قالوا للنبي ﷺ استهزاء[3]: ليس من الناس أحد أضيق بلداً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك فلييسر عنا». وكذلك لم يفهم العربي المادي حتى قبيل الإسلام معنى الوحي بل حسبه مسًا من الجن كما قالوا للنبي ﷺ: «وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب».[4] ولم يقتصر الأمر على ذلك. بل نسب أقوال الوحي إلى رجل يقال له الرحمن[5]. فلم يخطر ببال العربي أن هناك إلهًا معنويًا غير الصنم المادي، -نعم- كان الله فيما فهموا من أعظم الآلهة كما كان هبل أعظم الأصنام عند قريش، والمشور أعظم الأصنام في بابل، لكن كبرياء الله لا تمنع كونه صنمًا في تصورهم كما قال أوس بن حجر:

وبـــاللات والعـــزى ومـــن دان دينـــها وبـــالله إن الله مـــنهن أكـــبر[6]

(١)أخبار مكة ص٧١ «باب ما جاء في أول من نصب الأصنام».
(٢) أخبار مكة ص٣٧.
(٣) سيرة ابن هشام ج١ ص١٨٢.
(٤) سيرة ابن هشام ج١ ص١٨٢.
(٥)سيرة ابن هشام ج١ ص١٨٢.
(٦) كتاب الأصنام وديوانه ص١٧.

لذلك لا أرى الصواب في الرأي الذي يقول: إن فكرة التوحيد نشأت طبيعية في البلاد العربية، وكذلك أخطأ من قال: إن محمداً ﷺ لم يأت بشيء جديد في التوحيد، بل دعا القوم إلى إجلال «الله» الذي كان أعظم الآلهة من قبل. والحقيقة أن العرب الجاهلية قبل كل شيءلم يعرفوا معنى التوحيد من أساسه، لذلك لما بعث الله نبيه وأتاهم بتوحيد الله وعبادته وحده لا يشركون به شيئاً قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص:٥)، فهم لم يفهموا التوحيد إلا أنه جعل الآلهة إلهاً واحداً - نعم لقد وجدت فيهم رجال موحدون مثل ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبد الله بن جحش، وزيد بن عمرو بن نفيل الذي قال:

أرب واحـــــــداً أو ألــــــف رب ... أديـــن إذا تقســـمت الأمـــور[1]

إلا أن أكثرهم إما تنصر أو تهود، وهذا لا يمكن إلا إذا عرفوا العقائد اليهودية أو النصرانية قبل ترك دينهم. ومن يعرف ما كان هذا الرب عندهم، أكان ملك الظلام مثلما كان عند اليهود أو حلول الله في عيسى بن مريم، وقد بدأت عبادة الرجل في الزبرقان بن بدر وغيره[2]، فهذه الوحدانية لا تزيد عن وحدانية اليهود والنصارى.

**وخلاصة القول:** أن العقلية العربية حين ظهور الإسلام كانت عاجزة عن فهم الإله الواحد، فعلّمهم النبي معنى التوحيد وأسلوب تفهم صفاته، فالتوحيد شيء وتفضيل صنم منهم على آخر شيء آخر، لأن التفضيل عند الوثنيين كان تتبع سلطة القبيلة التي تغلب ربها على سواها، كما نرى في إله أشور وإله مردوخ ونحو ذلك.

فالعقلية العربية كانت ضالة في تعدد الآلهة، إلى أن نبههم الله تعالى بقوله: ﴿ لَوْ

---

(١) أغاني ج٣ ص١٢٥.

(٢) أديان العرب لنعمان الجارم «عبادة العرب للإنسان».

كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ لص:١٥. ومن ميزات التوحيد أن يندمج إلهة القبائل والأقاليم في رب الأرباب وإله الأمة، وتصير صفاتهم صفته، كما صار إله أشور آله الأشوريين جميعًا. ومن ميزاته أيضًا أن عقلية الأمة لا تقبل الشركاء في تدبير الكائنات مع الله، ونحن لا نجد أثرًا من تلك الميزات في الوثنية العربية - إذ كان لكل قبيلة إله مخصوص تعبده وتحل به، كرب قريش ورب ربيعة ولم يكن بين هذه الأرباب علاقة الحاكم والمحكوم، ولو أصبحت علاقة الأبوة من هبل واللات والعزى تحت تأثير اليهود والنصارى، ولكن الآلهة كانت مقدسة ومحترمة عند كل قبيلة بلا امتياز فكان قريش يعظمون هبل، كما كانوا يقدسون اللات ومناة والعزى، ولم تتخذ هذه الأرباب فيما بينهم علاقة الحكم والإدارة، وذلك لا يمكن في القبائل التي كانت الحروب تسود فيها، وكذلك كانوا يجعلون لله شريكًا وأندادًا، فإذا جلسوا ليقتسموا أنعامهم وأسلاب حروبهم قسموه بين الله وبين عم أنس وعميانس، وما دخل في حق الله من حق عميانس ردوه عليه، وما دخل في حق الصنم من حق الله تركوه له[1]. وهذا يخالف أيضًا ميزات التوحيد. ولكن نجد في أقسام العرب أنهم كانوا يحلفون برب الشمس والقمر، وبرب النور والظلام، وكان من أيمانهم[2]: «لا ومجري الرياح، ولا ومميت الرياح، لا ومنشئ السحاب، لا والذي أخرج الماء من الحجر والنار من الشجر»[3]؛ فبعدما عرفنا عقلية الأمة العربية وعقيدتها المتمثلة في قولهم: ﴿ وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ ﴾ االجاثية:٢٤. نستطيع أن نفهم ما كانوا يريدون بـ «والذي نفسي بيده»، وبرب النور والظلام (والشمس)، وبمنشئ السحاب (مطرنا بنوء كذا)، وبمجرى الرياح ومميتها[4].

---

(١) كتاب الأصنام ص٤٣.

(٢) كتاب الأصنام ص٤٣.

(٣) أيمان العرب في الجاهلية لأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله.

(٤) أخبار مكة.

لكن لا نستطيع أن نزعم ما كانوا يقصدون بـ «والذي شق الرجال للخيل والجبال للسيل»، «وبباعث الأرواح»[1]. وذلك لأن كثيرًا من أساطير العرب التي كانت تتعلق بتلك المعاني أصبحت نسيًا منسيًا، أو قل كان العربي يشعر أحيانًا بخالق الإنسان وباعث الأرواح، وكان يلتفت إليه أحيانًا، وكان يشير إليه بالذي عمل كذا وكذا، فقد يكون هذا من تراث إبراهيم واسماعيل، وقد يكون من وظيفة الضمير الذي فطر عليه الإنسان، لكنه لم يثمر ولم يخلف أثرًا في حياة العرب الاجتماعية قبل ظهور الإسلام.

من هذا البحث نستنتج أن طبيعة البلاد العربية لم تدع نشوء فكرة التوحيد، وأن وحدانية اليهود والنصارى أيضًا لم تكن أكثر من وثنية العرب، فالعرب لم يتأثروا باليهودية والمسيحية في فكرة التوحيد، بل تأثروا بفلسفتهم الوثنية إلى حد ما، ونهتدي منه إلى أن نقول: إن الإسلام لم يتطور من درجة إلى درجة، ولا وحدانيته مأخوذة من اليهود والنصارى، بل نشأ مستقلاً بذاته، فإله الإسلام رب العالمين، وليس رب قريش فقط، وهو خالق الأرض والسماء وما فيهما، ولم يغير وحدانيته تفلسف الفلاسفة كما تغيرت اليهودية والمسيحية بفلسفة الحلول والتقمص والتثليث. وهو ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى:١١]، وهو حي قيوم «لا تأخذه سنة ولا نوم»، بخلاف العقيدة اليهودية في تناسله، وإله الإسلام «أحد، صمد، لم يلد، ولم يولد»، بخلاف إله النصارى، وهو الإله الذي لا يشفع عنده «إلا بإذنه» بخلاف النصارى الذين يعتقدون في كفارة المسيح، فأين إله العرب الجاهلية وأين: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

(١) إيمان العرب في الجاهلية.

# الفصل السابع

## أسطورة الخلق والحياة بعد الممات

قال الله تعالى في شأن أهل مكة: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥]. وكذلك ورد في شأنهم أيضًا: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية:٢٤]. فبإزاء هاتين الآيتين لا أستطيع أن أقول من هو الله الذي أراد به أهل مكة أنه خالق الأرض والسماوات، إذ كان الدهر هو الملك والدنيا هي الحياة في عقيدتهم.

لكن الرواة ذكروا أن العرب كانوا منقسمين طوائف متعددة، منهم من أنكر الخالق، ومنهم من أقر به وأنكر البعث، أما التوراة فتقول أن بني إسرائيل ظهروا وهم يعتقدون بالإله الواحد القهار خالق السماوات والأرض، وهكذا روت العرب عن بني اسماعيل حينما افترقوا عن إخوانهم، فليس ببعيد أن بني اسماعيل اعتقدوا في وجود الله الواحد كاعتقاد إخوانهم الآخرين، لكنهم لم يستمروا على هذه العقيدة، بل ظنوا في الله أنه كالأصنام الأخرى كما بينا سالفًا - فكان بنو اسماعيل - كما تذكر الروايات يتصورون الله في صورة الرجل الذي يخلق السماء والأرض والشمس بطريقة لا نعرفها؛ لكن الطريقة كانت معروفة عند اليهود، الذين كانوا يعتقدون أن الله فرغ من صنع الكائنات في ستة أيام، واستراح يوم السبت، وأخيرًا خلق الإنسان وشكله على صورته كما يشكل صانع الفخار فخاره ثم نفخ فيه روحًا، أما فكرة هبوط آدم فهي عقيدة إسرائيلية، ولم تكن موجودة عند البابليين الذين كانوا يصورون الإله الخالق وهو يحارب التنين الأسود (رمز الظلام) ويقتله، ثم يشطر جثته شطرين، يتخذ أحدهما حاجزًا يمنع به المياه العليا من السقوط ويسمى تيامات.

وقالوا «كان في بدء العالم ماء ثم خطر لمردوخ الإله الأعظم أن يخلق الإنسان من دمه وعظمه ليسكن الأرض ويعمرها[1]». أما بنو اسماعيل فكانوا يعتقدون (في عصور متأخرة) في الخلق مثل البابليين الذين اعتبروا الماء أقدم الكائنات، ويظهر هذا من قول كعب الأحبار الذي قال: «كانت الكعبة غثاء على الماء قبل أن يخلق الله تعالى السماوات والأرض بأربعين سنة ومها دحيت الأرض»[2] لكن التاريخ لم يذكر عنه شيئًا، وكل ما عرفناه في هذا الصدد فهو أخبار متأخرة، وكثير منها لُفق على يد كعب الأحبار الذي كان يريد إدخال العقيدة اليهودية في الإسلام تحت ستار قول ابن عباس[3]؛ وكذلك وهب بن منبه، وعبيد بن شريه اللذان كانا يذيعان الأفكار البابلية والفارسية في الحجاز.

فانظر إلى أسطورة الخلق هذه: «إن الله تعالى لما أراد أن يخلق السماوات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السماوات والأرض، ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت هيبة فصارت ماء، ثم نظر إلى الماء فغلى وارتفع منه زبد ودخان وبخار، وأرعد من خشية الله، فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة....».

وبعدما نترك قصة خلق السموات والأرض هذه المختلطة بنظريات المذاهب المختلفة نجد: «ثم بعث الله تعالى من تحت العرش ملكًا فهبط تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه، وإحدى يديه في المشرق والأخرى في المغرب باسطتين قابضتين على قرار الأرضين السبع، حتى ضبطها، فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثورًا له سبعون ألف قرن، وأربعون ألف قائمة، وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه، فأحدر الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة

---

(١) Seven Tablests of Creation

(٢) أخبار مكة ص١.

(٣) قصص الأنبياء ص١٨.

الفردوس، غلظها مسيرة خمسمائة عام، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار هذه الأرض وهي كالحسكة تحت العرش، ومنخر ذلك الثور في البحر، فهو يتنفس كل يوم نفسًا فإذا تنفس مد البحر، وإذا رد نفسه جزر، ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار، فخلق الله تعالى صخرة خضراء، غلظها كغلظ سبع سماوات وسبع أرضين، فاستقرت قوائم الثور عليها.... فلم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نونًا، وهو الحوت العظيم اسمه لوتيا وكنيته بلهوت، ولقبه بهموت فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال، قال: والحوت على البحر» [1].

فإذا طرحنا من أسطورة الخلق العربية النظريات البابلية مثل كون الماء مبدأ الكائنات، ومثل العدد السبع الذي كان مقدسًا عند البابليين، وشبه عقيدة يهودية كقول : «بعث الله تعالى من تحت العرش ملكًا فهبط إلى الأرض» لبقي من الأسطورة استقرار كرة الأرض على تلك الأشياء المتعددة وهذه كما أرى أسطورة عربية خالصة؛ لأن العقلية العربية كما بينا لا تستطيع أن تتصور جوهرًا مجردًا عن المادة في التكوين، لذلك حينما وصلت فكرة الخلق البابلية والإسرائيلية إلى العرب رأوا أنه يجب أن يكون تحت الأرض ذات السبع طبقات شيء مادي تستقر عليه، فذهب بهم الظن إلى أن يجعلوا الثور حامل الأرض على عاتقه، وجعلوا تحت الثور صخرة خضراء، وكان موضع قرار تلك الصخرة الحوت العظيم وهو بدوره كان على البحر الذي يتصوره العرب شيئًا عظيمًا. ومما يؤكد أن استقرار الأرض على أشياء هو فكرة عربية، أننا نرى الله سبحانه وتعالى، ينبه العرب إلى ما كانوا يعجبون منه حينما يقول: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد :٢].

---

(١) قصص الأنبياء ص٤.

كذلك كان من أساطير كعب الأحبار: «إن إبليس تغلغل على الحوت الذي على ظهره الأرض فوسوس إليه، وقال له: أتدري ما على ظهرك يا لوتيا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها، لو نقضتها أو ألقيتها عن ظهرك أجمع لكان ذلك أريح لك، قال: فهم لوتيا أن يفعل ذلك»[1]. فما هذا إلا تعليل الزلزلة الذي تصوره[2] وهب أيضًا فقال : «إن ذا القرنين أتى على جبل قاف فرأى حوله جبالاً صغارًا، فقال له : من أنت ؟ قال: أنا قاف، قال: فأخبرني ما هذه الجبال التي حولك، فقال: هي عروقي؟ فإذا أراد الله أن يزلزل أرضًا أمرني فحركت عروقًا من عروقي فتزلزلت الأرض المتصلة به» فهذه الروايات ومثلها تهدينا إلى أن الفكرة العربية - سواء كانت حديثة أو قديمة - تنتج دائمًا من التعليل المادي الخالص.

وهناك خرافة أخرى، قال الربيع بن أنس: «إن سماء الدنيا موج مكفوف والثانية من صخرة، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس، والخامسة من فضة، والسادسة من ذهب، والسابعة من ياقوته بيضاء، وكانت الكواكب معلقة من السماء كالقناديل»[3] وقس على ذلك أن الإنسان أيضًا عند العرب لم يخلق من دم الإله كما خلق منه عند البابليين، ولا هبط آدم من الجنة كما قالت اليهود، بل خلق من الأرض ذات نفسها، فكانت فكرة أمومة الأرض معروفة وشائعة عند العرب، كما كانت منتشرة عند الأمم جميعًا.

قال أمية بن أبي الصلت:

والأرض معقلـــنا وكانـــت أمـــنا    فـــيها مقابـــرنا وفـــيها نولـــد

(١) قصص الأنبياء ص٥.
(٢) قصص الأنبياء ص٥.
(٣) قصص الأنبياء ص٥.

وكذلك[1] سئل يحيى بن معاذ الرازي، أن ابن آدم يدري أن الدنيا ليست بدار قرار فلم يطمئن إليها؟ قال: لأنه منها خلق، فهي أمه، وفيها نشأ فهي عشه، ومنها رزق، فهي عيشه، وإليها يعود[2] فهي كفاته»[3] ويؤيد هذا ما قيل في خلق العظاءة (سام أبرص) أنها تسمى شحمة الأرض أو شحمة الرمل، وهي أنواع كثيرة منها الأحمر والأصفر والأخضر، وكلها منطقة بالسواد، وهذه الألوان بحسب مساكنها. وكذلك ذكروا عن الواق والدوال أنهما نتاج ما[4] بين بعض النبات والحيوان. وقالوا في خلق الجن، إنها خلق من بيض متعدد -كما ذكرنا في باب الطوتمي- كل هذا يدل على أنهم كانوا يرجعون خلق كل شيء إلى الأرض فكانت الأرض كفاته كما كانت أمه.

يجب بعد هذا أن نرى ماذا كانت عقيدة العرب في الحياة بعد الممات، لم يكن الإنسان حرًا فيما يفعل وفيما يترك، إنما هو آله مجبرة على السير في طريق رسمها له الدهر كما رسمها للأنهار والأشجار والأحجار والكواكب وسائر أنواع الكائنات. وكذلك الخلود لم يكن بقاء روحانيًا عند العرب كما ورد في تفسير الآية : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [الجاثية:٢٤] ؛ فإنه فسر معنى نحيا بقوله: «إننا نموت ونحيا بأعقابنا»[5]. ووجد الباحثون في قرية حوران الخاتم الذي تدل نقوشه على أن البهائم كانت تساق إلى الأموات للأكل منها. ومثل هذا نراه في تقاليد العرب الذين كانوا يعقرون الإبل ويعلقون البلية على القبور، وهذا كما أرى لم يكن مكافأة أو مخافة من أرواح الأسلاف كما قيل، بل كانوا يذبحونها عبرة لأعقابهم

---

(١) قصص الأنبياء ص١٢.

(٢) الحيوان للدميري ص٩٨.

(٣) الحيوان للجاحظ ص٨٧.

(٤) تفسير الطبري.

(٥) Religion of Palestine p. ٣٥.

واحتفاظًا لتقاليدهم في فضيلة المروءة التي كانت أساس حياتهم الاجتماعية، وأما ما ذُكر في العادات القديمة من القول بأن من مات ولم يبلُ ما عليه حشر ماشيًا، ومن كانت له بلية حشر راكبًا، فإنه لا يتفق مع عقلية البداوة، وليس هو من مبادئ عقائد الأمة السامية بأجمعها، لذلك كان هذا القول فكرة دخيلة في العادات العربية القديمة، أو هو من صناعة الرواة المتأخرين الذين كانوا ذوي أغراض.

ودليل آخر على ذلك أن بابل، وهي أقدم الأمم حضارة في بلاد العرب على الأقل لم تفكر في الحياة بعد الممات، وهناك نقش آرامي من القرن الثامن وجد في إقليم زنجير لي في شمال الشام، وهو يبين أن الأموات كانوا يأكلون ويشربون أمام آلهتهم[1] وكان اليمنيون يدفنون تمثالاً مع كل ميت في قبره، وكانوا يكتبون على ذلك التمثال نسب الميت وأمانيه، كما قال الهمذاني في الإكليل: «ووجد رسم آخر فيه أن الشخص الذي يحمل في يده إبريقًا يسقى منه العطشان»[2].

وهكذا كان العرب يتصورون أن الهامة التي تخرج من رأس الميت تقول: اسقوني، اسقوني؛ ولذلك قال كوك: «حقًا إن هناك إبهامًا وسقمًا وغموضًا في العالم الآخر عند الساميين».

"There is Certain gloom, morbidity & avsence of other world liners among semites."

والواقع أن العرب كانوا يقولون: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء:٤٩]. ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الصافات:١٥-١٦]. ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون:٣٧].

---

(١) Religion of Palestine p.٢٧.

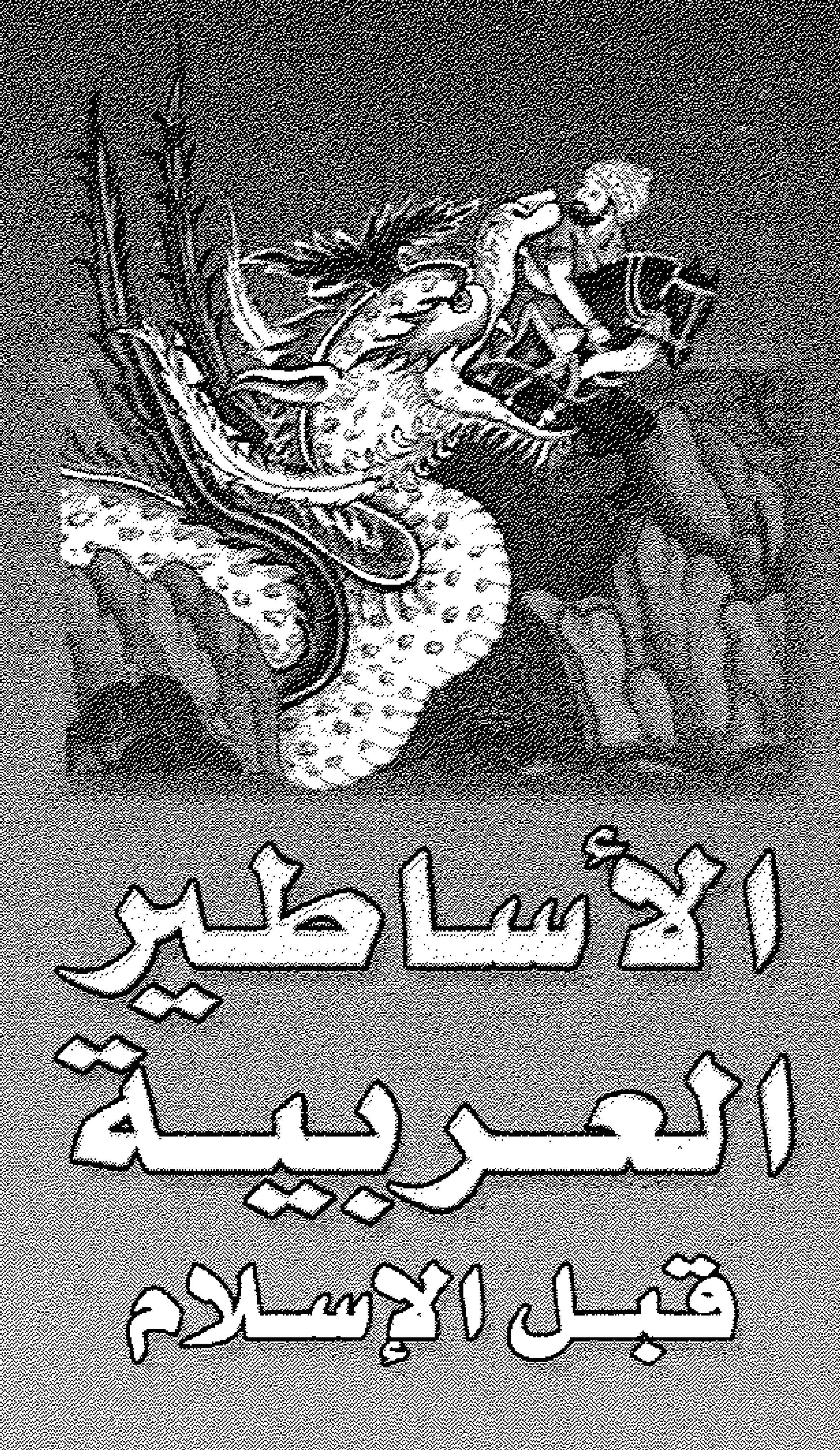
(٢) Religion of Palestine p.٢٩. Religion of Palestine p. ٣٦ Foot note.

هذا مبلغ العقلية العربية قبيل الإسلام فلما جاء الإسلام قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ «الإسراء:٨٥»، فهدم بهذا المذهب الحيوي، وغير النبي اسماء أصحابه الحيوانية (فقوض المذهب الطوتمي)، ومنعت الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها (فأزال الوثنية) وعلمهم النبي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ «الإخلاص»، وأفهمهم أن الله فاطر السماوات والأرض؛ وأنه بدأهم من العدم فإذا أراد خلق شيء قال له : «كن فيكون».

هذه هي عقلية الإسلام التي قضت على جميع نظريات الماديين وفلسفة الوثنيين ومن أرفع من الإسلام شأنًا وأعلى منزلة في نضوج العقلية الإنسانية إذا اعترفت بتطور العقل. وها هو العربي العاري عن التخيل، والمادي الطبع، والدهري العقيدة، أصبح به المثل الأعلى في الوحدانية وفي تصور صفات الإله، وفي بناء الاجتماع الإنساني القائم على أحسن العلاقة بني الخالق والمخلوق، وبين الروح والمادة. فالحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين.

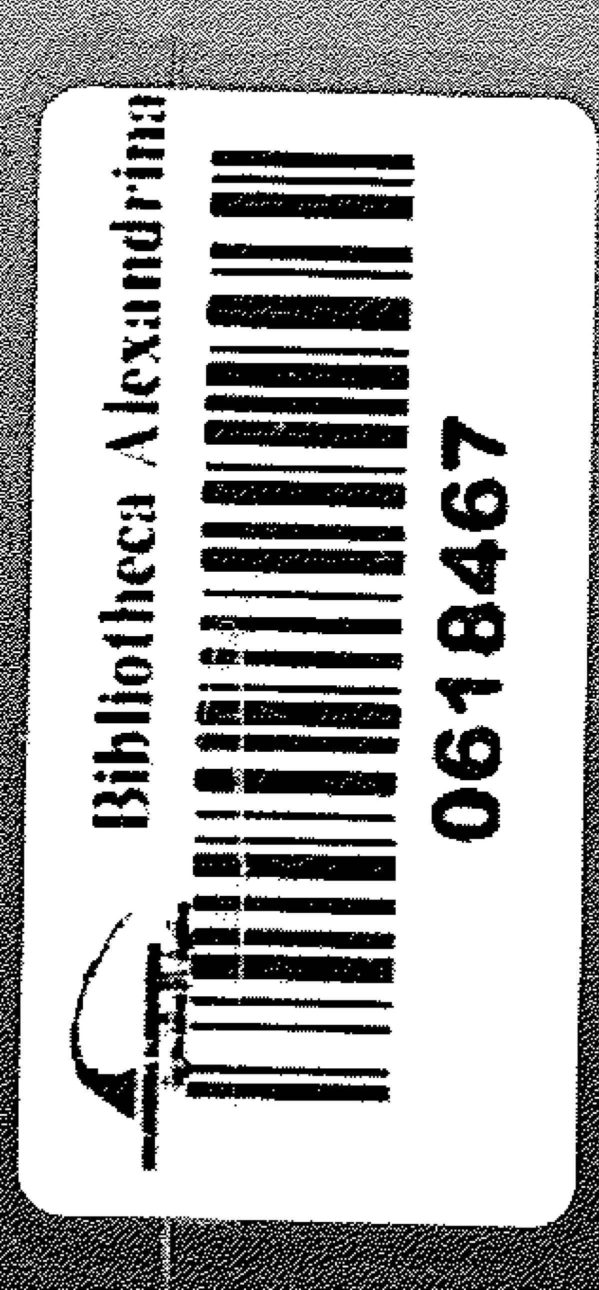
# الفهرس

ف : 1/4/3/07 تاريخ استلام : 13/5/2007



# الأساطير العربية

## قبل الإسلام







مكتبة النافذة